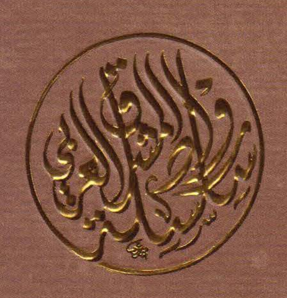


رحلة إلى المدينة المنورة عبر قلب البادية

(صحارى البرّ الداخلي)

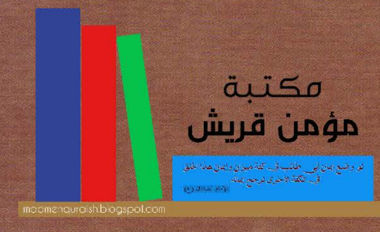
للرحالة الألمانية

دوروتيا فون لينكه

(الكونتيسة مالمينياتي)

ترجمة: محمد سعيد مزهر

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش



رواد المشرق العربي

رحلة إلى المدينة المنورة

عبر صحارى البرّ الداخلي

دوروتيا فون لينكِه

(الكونتيسة مالمينياتي)

ترجمة

محمد سعيد مزهر

تحرير وتعليق

د . أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS94. M312 2011
Malmignati, D. countess
[Through inner deserts to Medina]

رحلة إلى المدينة المنورة عبر صحاري البر الداخلي/ تأليف: دوروتيا فون لينكه (الكونتيسة مالمينياتي)؛ ترجمة: سعيد مزهر؛ تحرير وتعليق: أحمد أيبش. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2011.

167ص. : مص. ، خريطة؛ 24 سم.
بيليوجرافية: ص. 165-166

ت د م ك: 5 - 972 - 01 - 9948 - 978

1. سوريا: وصف ورحلات. 2. شبه الجزيرة العربية: وصف ورحلات.
أ. مزهر، سعيد. ب. إيبش، أحمد. ج. السلسلة. د. العنوان.

ترجمة كتاب: Through inner deserts to Medina



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى: 1432 هـ = 2011م

أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص . ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

رحلة إلى المدينة المنورة

عبر صحارى البرّ الداخلي

سلسلة
روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي»، التي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائها بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منها، وتقديمها للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

رحّالتنا لهذا الكتاب (دوروتيا فون لينكِه، أو دوروتيا موليتور، أو الكونتيسة مالمينياتي، أو دوشكا) شخصية عجيبة غريبة، لا تقلّ غرابة عن مجريات رحلتها ذاتها، ويكاد القارئ لكتابها يحار: هل جرت لها كل تلك الوقائع فعلاً؟ وهل تمكنت حقاً من الترحال بمفردها في أوائل القرن العشرين، من دمشق إلى عدرا وتدمر في بادية الشام والحَماد ووادي السّرحان وصولاً إلى إقليم القصيم في جزيرة العرب؟ أحقاً دخلت عبر صحراء الدّهناء إلى زلفي وبريدة والحناكيّة ثم المدينة المنوّرة؟ وهل يسعنا أن نصدّق مجريات الأحداث التي وصفت وقائعها هناك؟ أم حلمها باجتياز الرّبع الخالي بمنطاد؟

بعض الباحثين ألقوا ظلالاً من الشك حول رحلتها، وعدّوها ضرباً من المؤلفات المختلقة التي اعتاد مثقفو الطبقة المخمليّة في أوروبا تدوينها في القرن التاسع عشر.. حتى أن معاصرها الرحّالة التشيكي الكبير ألويز موزيل (الذي صاحبناه في كتاب رحلاته الشائقة من بادية الشام إلى الجوف بين 1908-1915) أنكر تماماً أن يكون قد سمع بهذه الكونتيسة، كما لم يرد أمامه اسمها على لسان شيخ عشيرة الوُلد علي سلطان الطيّار، الذي تروي حول صداقتها الحميمة معه أقاصيص وأحاديث وتفاصيل كثيرة.

الواقع أن هذا الضرب من المبالغات كان شائعاً، وخير مثال عليه كان الضابط الألماني كارل شميت Carl Schmidt (كارل رضوان) الذي تجوّل مع عشيرة الرّوَلة في بوادي الشام والجوف، وادّعى في كتابه «الخيام السّود في جزيرة العرب» *Black Tents of Arabia* أنه جمعت بينه وبين فواز الشعلان (حفيد شيخ العشيرة النّوري بن هزّاع الشعلان) أخوّة وصداقة، وروى حول ذلك أقاصيص كثيرة لا نصيب لها من الصحّة، وإن كانت تغلب عليها المتعة والتشويق ودقة التفاصيل. ومن الأمثلة الأخرى أيضاً كتاب الرحّالة وليَم سيبروك William Seabrook المليء بالفبركات.

هذا كله ربما كان إرهاصاً للخيال الأدبي الذي أسفر فيما بعد عن ظهور أعمال أدبيّة تدور أحداثها في جزيرة العرب، وتحوّلت إلى أفلام عالميّة شهيرة من أمثال: «ابن الشيخ» *Son of the Sheik* ، و«لص بغداد» *The Thief of Baghdad*، و«لورنس العرب» *Lawrence of Arabia*. ومما لا ريب فيه أنّ أكبر دافع لهذا الاهتمام في أعقاب الحرب العالمية الأولى كان الهالة الأسطوريّة التي نسجها الكاتب الأميركي الشهير لاول توماس Lowell Thomas حول الضابط البريطاني الكولونيل توماس إدوارد لورنس، قائد قوات الإنكليز في شمالي الجزيرة، إبّان قيام الثورة العربية الكبرى ضدّ التّرك (1916-1918)، وما أثارته كتبه حول «بطولات» لورنس من إعجاب كبير[1].

* * *

كائناً ما كان الأمر، لا نقاش في أنّ من يقرأ كتاب دوروتيا هذا، الذي نقدّمه مع صاحبته بالعربيّة للمرة الأولى، سيجد فيه قدراً كبيراً من المتعة والوصف الحيّ الشائق لمشاهدات المؤلفة في مشرقنا العربي، ولحياة قبائل البدو في بوادي الشام والجزيرة والقصيم في مطلع القرن العشرين.. والغريب في الأمر أنّ من يقرأ الطبعة الإنكليزية التي صدرت في عام 1925 لا يستطيع أن يدرك على الإطلاق الفترة التي تمّت فيها الرحلة، فنصّها مغفل تماماً من أية تواريخ أو تفاصيل تدلّ على ذلك.

غير أنّ ذكر المؤلفة لأسماء بعض الشخصيات التي تعرّفت بها بدمشق والبادية (ندرة مشاقة، محمود البسّام، الدكتور خليل، مسيو داود، الشيخ سلطان الطيّار، الشيخ محمّد العبدالله العرّوج..) يضفي على نصّها مقداراً من المصداقيّة لا يُستهان به. ثم إنها نشرت في كتابها عدداً من الصور الفوتوغرافيّة التي التقطتها بعدستها لعدد من هذه الشخصيات والمواقع التي زارتها، فأضفى ذلك على كتابها مزيداً من الحقيقة.. وفي إحدى الرسوم اليدويّة التي أضافتها للكتاب (وكانت توقّع عليها بحرفي: DM، أي دوروتيا موليتور) نجد راية عثمانيّة وجندياً يلبس الزيّ التركي.

---

(1) نبشّر القارئ الكريم بأننا نعمل على ترجمة جميع هذه الكتب المذكورة: كتاب كارل شميت «الخيام السّود في جزيرة العرب»، وكتاب لاول توماس «مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب»، وكتاب لورنس «ثورة في الصحراء».

هذا هو إذن الدليل على فترة الرحلة: معنى ذلك أنها جرت قبل أكتوبر 1918، وهو تاريخ خروج الجيش العثماني الخامس من دمشق، وبالطبع كانت أيضاً قبل الأحداث الدامية والحروب والمجاعة التي يتعارف عليها المؤرخون باسم «السَّفر بَرلِك» (1916-1918). قادنا التخمين في البداية إلى أن تكون الرّحلة قد جرت قبل عام 1916 بقليل (بدليل ذكرها لسنّ الشيخ الشاب سلطان الطيّار).. وبعد جولة موسّعة بين مراجع مكتبة الجامعة الأميركيّة في بيروت، ظفرنا أخيراً بالضالة المنشودة والجواب الشافي: سنة 1914 تحديداً.

وقبل أن نتابع حصيلة البحث حول المؤلفة ودوافع رحلتها، علينا هنا أن نشير وبكثير من الإعجاب إلى أنّها قد قدّمت نصاً جميلاً وشائقاً ومليئاً بالحياة عن مجتمعات بلادنا وعشائر بدونا، نقرأه اليوم بعد 96 سنة فيعود بنا إلى ماضي تلك العهود التي خلت، يوم لم يكن هناك من وسائط للسّفر في البادية سوى الجمال، ولا وسائط للاتصال على الإطلاق.. ويوم كان لطبيعة البادية سحرها ورونقها وأسرارها وشاعريّتها وحتى خطورتها، وكانت حياة البداوة في الصحارى والبوادي ما تزال على سجيّتها الأولى، مترعة بالفضائل والقيم النبيلة.

كم يمتعنا أن نقرأ مدى الإعجاب الكبير لهذه المغامرة الأوروبيّة بأخلاق العروبة ونُبل البداوة، في بيئتها الحقيقيّة وفطرتها الأصيلة، فها هي ذي تكتب:

«لا شيء بوسعه إفساد السّكينة والانسجام في حياتهم وأفعالهم. أمّا أنا فقد شعرت بقلبي يجتليه الأمان كل يوم أكثر من ذي قبل، ولقد صَفَت عيوني وعقلي، وأصبحت حركتي هادئة ورزينة كالبدو. ما أبسط حياتهم! وما أنقى هؤلاء القوم! أفعالهم حازمة وقوية كوجوههم، ومع ذلك فلهم إيمان الأطفال وقلوبهم. كم هم مختلفون عن سواهم من البشر، فلقد حافظوا على نقاوتهم وبدائية حياتهم. لديهم عقاب الكاذب أكبر بكثير من عقاب السارق، والواقع أنّ مبادئ الشرف ومعاييره لديهم رفيعة للغاية».

ثمّ كم يمتعنا وصفها لحياة البدو في مضاربهم وحلّهم وترحالهم، ووصفها لأعراسهم ومجالسهم المسائية، ولأحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم، ونصّها يعبق شغفاً بأسلوب حياتهم الشاعري.. حتى أنها تزيّت كنساء البدو، وراحت تقلّدهم في تصرفاتهم وتأكل

بأصابع يدها اليمنى، وتستمتع بمآكل البدو: منسف الخراف، الدجاج المحمّر، البرغل المفلفل ولبن أمّه والرّشتة، وتشرب في الصباح حليب النّوق وتأكل التمر، وتستمتع بشرب القهوة العربيّة المرّة.

لقد عاشت هذه الكونتيسة الألمانيّة حلمها الحقيقي بعدما جالت مراراً في ربوع أوروبا، ولم تستهوِها المدنيّة هناك بقدر ما فتنتها عفوية حياة البادية وصدقها وبساطة سجاياها:

«كان أمراً رائعاً الاستيقاظ في صباح كل يوم في مكان مختلف من الصحراء الشاسعة، ومغادرة الخيمة والانغمار في الضوء والخلاء، والاستمتاع بالحياة، واستنشاق الهواء النقي الذي كان يجعلنا نشعر بأننا أصغر في السنّ وأقوى. حتى العيون هي الأخرى تفتّحت، ولاقت الرّوح انسجامها التام، وشعرتُ بأنني أخيراً لقيتُ قدري الحقيقي، وبأنني أخيراً أعيش حياتي».

وتضيف: «شعرتُ بأنني في منزلي بينهم كما لم أشعر سابقاً. لقد راقت حياتهم لمكنونات عميقة وغامضة في نفسي، وكأنها قبل أزمنة بعيدة قد امتزجت في حياتي بمعنى الحريّة وعشق البراري، كحياتهم».

يذكّرنا ذلك ببعض النساء الرحّالات اللواتي جذبهنّ المشرق ووجدن حتى فيه الحبّ الحقيقي، وتزوّجن من بعض رجال البادية، مثل الإنكليزيّة الليدي جين دِغبي **Lady Jane Digby** التي تزوّجت من مجوِل المصرِب، والفرنسية مدام B (نجهل اسمها) التي تزوجت من الشيخ محمد العبدالله العرّوج، والإنكليزية الليدي هستِر ستانهوب **Hester Lucy Stanhope** التي دوّخت رجال الدولة في لبنان إبّان حكم بني عثمان.

وعلى ذلك، يمكننا اليوم أن نضمّ دوروتيا فون لينكِه إلى زمرة النساء الرحّالات في المشرق، من أمثال: ليدي ماري وورتلي مونتغيو، الليدي آن بلَنت، الليدي إيزابيل بُرتون، غرترود لوثايان بِل، فريا ستارك، مايبل بِنت، إيزابيل إبرهارت، إميلي روث، ڤايولِت ديكسون، أليسون ليريك.

* * *

نقدّم فيما يلي دراسة عن حياة الكونتيسة مالمينياتي ورحلاتها المختلفة، ويلي ذلك نصّ كتابها المثير للجدل حول رحلتها إلى المدينة المنوّرة. قام بترجمة جزء من الكتاب السيد محمد سعيد مزهر، وقمت بترجمة البقية وراجعت الأصل وأضفت إليه ما يلزم من تعليقات وإيضاحات، كما جهدت لتصحيح أسماء الأماكن والأشخاص التي وردت فيها بطبعة الكتاب الأصلية عام 1925 أخطاء جسيمة، أظنها نجمت عن إخفاق عمّال الطباعة في قراءة خط المؤلفة.

والآن، هذا هو الكتاب بصورته الأقرب إلى الصحّة، يطالع فيه القارئ العربي للمرة الأولى هذه الرحلة الشائقة والمثيرة. فنرجو أن يجد فيه المتعة مقترنة بالفائدة.

والحمد لله ربّ العالمين.

بيروت، غرّة فبراير 2010

د. أحمد إيبش

* * *

أضواء
على حياة ومغامرات
الكونتيسة مالمينياتي

بواكير حياتها ورحلاتها 1883-1913:

تنتمي دوروتيا أولاّ فون لينكِه Dorothea Ulla von Lincke إلى عائلة ألمانية كانت تقيم في روسيا، ولدت حوالي عام 1883 في بلدة تسمّيها في مذكراتها ستاكوڤيتش Stakowitch بالقرب من موسكو. وتاريخ ولادتها هذا على محمل الاستنتاج، على اعتبارها كتبت أنها تزوجت في عام 1904 وكان لها من العمر 21 عاماً. كان لها أخت لم تذكر اسمها، وأخ هو أوتو فون لينكِه Otto von Lincke كان طياراً متميزاً في الجيش الألماني. أُرسلت دوروتيا للدراسة في إنكلترا، حيث تعلّمت الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسپانية والسلافية والعربية.

في عام 1904 تزوجت دوروتيا من الكونت موليتور الفرنسي الأصل، الذي كان واحداً من كبار مربّي الخيل في روسيا، وكان يورّد معظم خيوله إلى الجيش الألماني. وبعد زواجها بقليل، قامت دوروتيا بالتجوال مع زوجها عبر الجزائر، وتجوّلا بين الطوارق في الصحراء الكبرى، وهناك تمكنت من تقوية إجادتها للغة العربية حينما أقامت كضيفة في أملاك الكونت كاردو Cardo. بعد ذلك أمضت بعض الوقت في المستعمرات الألمانية بجنوب غرب أفريقيا (تُعرف اليوم باسم ناميبيا)، حيث كان خالها حاكماً وهو الجنرال لوتار فون تروتا Lothar von Trotha (حكم بين 1904-1905)، وقامت بجولة استكشاف مع بعض الفتيان المحليين، فأسرتها قبيلة أوڤامبو Ovambo فجرّد خالها حملة مسلحة وأنقذها.

بعد ذلك أمضت رحّالتنا بضعة سنوات في أوروپا، وشغفت بالتحليق بالطائرات والمناطيد، حيث كان أخوها كما ذكرنا طياراً، وتذكر أنها قامت بستين رحلة جويّة،

وأصيبت في عدة حوادث هبوط. وفي حوالي عام 1910 توفي زوجها الكونت موليتور، فظلّت تعرف باسم «الكونتيسّة موليتور» إلى أن تزوجت للمرة الثانية.

خلال السنوات التالية، قامت دوروتيا بدراسة التمريض في بعض مستشفيات ألمانيا، كما انتسبت لبعض الوقت إلى كليّة تبشيريّة پروتستانتية ألمانيّة. ثم عادت حوالي عام 1912 إلى إنكلترا لتعمل في بعض المستشفيات، وفي الوقت ذاته كانت تواظب على زيارة قاعة الخرائط في الجمعية الجغرافية الملكيّة بلندن، وتقرأ نصوص الرحّالين إلى جزيرة العرب. وفي شهر يوليو من عام 1913 قامت الكونتيسة برحلة جوية بالمنطاد عبر جبال الألپ بصحبة الكاپتن إلبرلانت **Elberlandt** من الجيش الألماني الذي كان خطيب أختها. ثم توجهت إلى مونتِه كارلو وإلى پاريس، حيث وقعت لفترة في أسر عصابة الأپاش **Apaches** المعروفة في پاريس آنذاك.

رحلتها عبر جزيرة العرب 1913-1914:

وصلت الكونتيسة إلى لندن في حوالي خريف عام 1913، والتقت بأمين سرّ الجمعيّة الجغرافية جون سكوت كِلتي **John Scott Keltie**، وأعربت له عن رغبتها العارمة بالعثور على منطقة مجهولة لتقوم باستكشافها. فراح كلتي يستعرض الأماكن التي يمكن لامرأة أن تستكشفها بأمان، ولكنه ما كاد يذكر صحراء «الربع الخالي» في جنوب شرق جزيرة العرب، حتى قرّرت الكونتيسة أن يكون هذا هدفها دون سواه، رغم الصعوبة البالغة لهذا الهدف.

كان مخططها في البداية أن تقوم برحلة من جدّة إلى مسقط، وتصحب معها مناطيدها العلميّة الصغيرة وربما حتى طائرة، وكانت تنوي تأمين نفقات الرحلة المقدّرة بـ 10,000 دولار عن طريق بيع أملاكها في روسيا. والواقع أنّ هذه المغامرة في عصرها كانت شيئاً يفوق التصوّر، فاجتياز الرّبع الخالي كان حلماً يراود مخيّلة الرحّالين لفترة طويلة، منذ أن جال البريطاني جيمس وِلستِد بأكنافه في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وجسّ الألماني ليو هيرش مشارفه انطلاقاً من وادي حضرموت. ومنذ ثمانينيات القرن التاسع عشر تردّد بعض الرحّالين في المغامرة بالتوغّل ما وراء سدّ مأرب في اليَمَن صوب صحراء الأحقاف، ولكن لم يتمكّن أي رحالة أوروپي من اجتياز الرّبع الخالي، إلى أن قام بهذه

المأثرة البريطاني برترام توماس، كما سنرى في كتابه *Arabia Felix*، فاجتازه متوجهاً من صلالة إلى الدّوحة في عام 1930.

المهم في الأمر، في شهر ديسمبر من عام 1913 أو أبريل من عام 1914، أبحرت الكونتيسة من ساوثامپتون إلى بورسعيد، واستقلت من هناك مركباً بخارياً إلى بيروت، ومرّت في طريقها بحيفا حيث رافقت أسقفاً كاثوليكياً إلى دير الآباء الكرمليين في جبل الكرمل. ومن بيروت ركبت القطار متوجهة إلى دمشق، التي وصلتها فيما لا يتجاوز شهر مايو من عام 1914. نزلت دوروتيا أولاً في الفندق الأوروبي الوحيد في المدينة، ثم استأجرت غرفة في بيت، ووضعت نفسها تحت تصرّف القنصلين البريطاني والرّوسي بدمشق، وراحت تتعرّف على الأوروپيين الذين يمكن لهم أن يقدّموها إلى شيوخ البدو الذين يمكن لها أن تعتمد على حمايتهم في الصحراء.

منذ وصولها إلى بورسعيد، كانت الكونتيسة تواظب على كتابة يوميّات تصف فيها رحلاتها وتذكر الأشخاص الذين تقابلهم، وتمّ نشر بعض هذه اليوميات في كتاب فرانسيس ميلر «قصص واقعية من الحرب العظمى» *True Stories of the Great War* الصادر في نيويورك عام 1917 (انظر مراجع البحث)، ثم استندت إليها المؤلفة عندما وضعت كتابها الحاضر «رحلة إلى المدينة المنوّرة» الذي لم يُنشر حتى عام 1925. ورغم أنّ النصّين يتطابقان بشكل تام حول الطريق الذي سلكته الرحّالة، فإنّ هناك قسماً محذوفاً من طبعة عام 1925 لا وجود له إلا في النصوص المنشورة عام 1917، وبخاصة الأحداث التي رافقت اندلاع الحرب العالمية الأولى وأدّت إلى إيقاف رحلتها بشكل جازم.

تؤكد الكونتيسة أنها شرعت في رحلتها من دمشق بتاريخ 5 يونيو 1914، وفي كتابها تذكر أنها اضطرّت للتلكؤ مدّة ثلاثة أسابيع شهدت خلالها احتفالات شهر رمضان، غير أنّ هذا يقدّم تناقضاً بالغاً على اعتبار أن بداية شهر رمضان في عام 1914 حسب قوائم مقارنة التواريخ الهجرية والميلادية كانت في 23 يوليو، فهل يعني ذلك أنها انطلقت في رحلتها قبل شهر رمضان، أم بعده في شهر أغسطس؟ الاحتمال الثاني يبدو غير منطقي نظراً لصعوبة السّفر في حرّ أغسطس اللاهب. وثمّة أمر آخر محيّر يظهر في ملاحظة نقرأها في مذكرات

الرحّالة البريطانية غِرترود بِل[1] التي ذكرت بتاريخ 11 يناير 1914 أنّ إحدى صحف دمشق نشرت في تلك الفترة خبراً مفاده انطلاق كونتيسة روسيّة لم تذكر اسمها في رحلة «صوب الشمال». ولمّا كان من المحال أن تكون دوروتيا[2] قد وصلت دمشق في شهر يناير فإنّ هذا يبقى لغزاً غامضاً لا جواب عليه.

أمّا حول الطريق الذي سلكته رحلتها فهو مبيّن في كتابها الحاضر هذا، وفي بعض مقالات الصحف التي ذكرتها (انظر المراجع). وممّا نستقيه من هذه المقالات أنّ دخولها إلى زلفي كان في 3 سبتمبر من عام 1914، وهذا قد يلقي بعض الضوء على تاريخ انطلاقها في الرّحلة المثيرة للجدل. أمّا في سجلّ يوميّاتها فنجدها تكتب أنها خلال اجتيازها الصحراء صوب زلفي أتت الأخبار من أوروپا حول اندلاع الحرب العظمى (أي الحرب العالمية الأولى)، والمهم ذكره هنا أنّ الدولة العثمانية دخلت الحرب في شهر أغسطس 1914. كان من نتيجة ذلك أنّ السلطات المحليّة قرّرت وضعها تحت الإقامة الجبريّة تجنباً للإشكالات التي قد تجرّها أخبار الحرب بين السلطنة (التي كانت تحكم جزيرة العرب) ودول أوروپا، بينما كانت الكونتيسة امرأة أوروپيّة لا سبيل لإخفاء ذلك.

هذا يفسّر لنا إذن مدى التوتر الكبير الذي عوملت به هذه الرحّالة التعيسة الحظ، حال انتشار أخبار الحرب.. فكانت النظرة المباشرة للناس آنذاك، بحسب ما يملي عليهم الحكام الأتراك، أنّ السلطنة أو الدّولة العليّة قد دخلت في حرب ضد الرّوم الكفّار. وعلى ذلك قوبلت دوروتيا بتحامل كبير، ومراراً ما وُجّهت لها عبارات حادّة حول كونها روميّة عدوّة. على من يقع هنا اللوم؟ على الأشخاص أم على واقع الأحداث؟ ليس هذا ما يهم، بقدر أهميّة لفت الأنظار إلى أن الصورة القاتمة التي رسمتها المؤلفة لما مرّ بها في القصيم إنما كانت نتاجاً لتلك الفترة العصيبة للغاية. وسوف نرى تتمّات لهذه المرحلة ما بين عامي 1916-1918 في كتب توماس إدوارد لورنس، وصديقه الكاتب لاول توماس.

---

(1) غرترود غرترود لوثايان بِل Gertrude Lowthian Bell رحّالة وسياسيّة وعميلة استخبارات بريطانيّة مشهورة (1868–1926 م)، قامت برحلة شهيرة عام 1904 من القدس إلى أنطاكية، دوّنت أخبارها في كتابها «العامر والغامر» *The Desert and the Sown* (نعدّه للنشر في سلسلتنا هذه). كما سيرد ذكر المس بِل في نصّ مالمينياتي أدناه.

(2) إبّان قيام الكونتيسة بهذه الرحلة عقب وفاة زوجها الأول كانت ما تزال تعرف باسمه: كونتيسة موليتور، وأما اسمها الكونتيسة مالمينياتي المذكور على طبعة الكتاب الصادرة عام 1925 فسببه أنها كانت ما بين 1917–1922 في زمن لا نعرفه بالضبط قد تزوجت من الكونت مالمينياتي.

كانت النتيجة إذن، أنّه تعيّن إيقاف رحلة الكونتيسة المزمعة إلى الرّبع الخالي (ولو أنها حاولت لما كانت عادت، ولا قرأنا لها كتاباً).. وقرّرت السّلطات المحليّة إرسالها مخفورة إلى دمشق من المدينة المنورة بقطار الخطّ الحديدي الحجازي (الذي بقي في الخدمة إبّان الحرب آنذاك حتى 2 يناير 1917). ومسألة إرغامها على العودة بسبب قيام الحرب لا تشير إليها في كتابها لا من قريب ولا من بعيد، بل استقيناها من النصوص التي نشرها ف. ميلر في كتابه الآنف الذكر.

ولدى عودتها إلى دمشق، شهدت الكونتيسة الفوضى التي سبّبتها أخبار الحرب، فتدبّرت الهرب إلى بيروت حيث اعتبرها الوالي هناك جاسوسة روسيّة، نظراً لما تحمله من صور فوتوغرافيّة وأوراق ملاحظات ومذكرات. وهنا، لم يتمكن القنصل الرّوسي من تقديم أيّة مساعدة إليها، على اعتباره كان هو الآخر تحت الخطر. فإذا بالعون يأتي من جهة غير متوقعة، إذ ساعدها ضباط سفينتين حربيتين أميركيتين كانتا راسيتين في ميناء بيروت آنذاك، هما: نورث كارولاينا *North Carolina* وتنيسي *Tennessee*. وبعد بضعة أسابيع من المعاناة والقلق، تقرّر الاكتفاء بترحيل الكونتسية من البلاد، وأعطيت ساعة واحدة لحزم أمتعتها والمغادرة على متن مركب مبحر إلى مصر.

رحلاتها في أوروبا وكتاباتها 1915-1925:

ليست هناك معلومات مؤكدة حول حياة دوروتيا في السنوات التالية لعودتها من المشرق وجزيرة العرب، وعندما قامت في عام 1917 بمراسلة فرانسيس ميلر وأرسلت إليه عدّة رسائل تلخص رحلتها، كانت تقيم لعدّة سنوات في كارتاغينا Cartagena بإسپانيا. وتروي أنها تعرّضت هناك لهجوم من دلفين ضخم عندما كانت تسبح في البحر، وكانت تحاول أن تمتطي ظهره ففوجئت به ينقضّ عليها، فأطلق عليه أحد ضباط الحصن النار وأرداه قتيلاً. لكن لسوء الحظ، أصابت إحدى رصاصات الضابط ذراعها.

ثم في وقت ما بين الأعوام 1917-1922 تزوجت دوروتيا من الكونت پ. غويرّيني مالمينياتي P. Guerrini Malmignati وهو ضابط خيّالة متميز في الجيش الإيطالي، فصارت منذ ذلك الحين تعرف باسم الكونتيسة مالمينياتي. وعائلة مالمينياتي من الأسر النبيلة في إيطاليا، لها قصر Palazzo Malmignati في لِنديناراLendinara بإقليم روڤيغو

Provincia di Rovigo. وفي بعض الكتابات اللاحقة صار الزوجان يعرفان اختصاراً بغوستي Gusti ودوشكا Doushka، واسم دوشكا بالرّوسيّة يقال تحبباً للبنات.

أقام الزوجان في كارتاغينا، وبعض الوقت في باريس. وحوالي عام 1922 غادرا باريس في رحلة غريبة وهما يلبسان ثياب متسولين سوريين، فجالا في جنوبي بلنسية وشرقي مُرسية. كانت هذه الرحلة جرّاء رهان مع أصدقائهما في النادي النسائي الأميركي في باريس The American Women's Club دوّنا وقائعها في كتاب أطلقا عليه: «تسكّع عبر إسبانيا كمتسوّلين» *As Beggars, Tramp through Spain* ونُشر الكتاب في لندن عام 1927 مع مقدمة كتبها صديقهما جان غوردون Jan Gordon.

عودتها إلى الشرق الأوسط 1926-1928:

في وقت ما بأوسط العشرينيات، ربما في عام 1926 أو 1927، تمّ تعيين الكونت غويرّيني مالميناتي في مركز بالقنصليّة الإيطالية بدمشق، فأتى تصحبه زوجته دوروتيا. ثم في أواسط صيف عام 1927 أعلنت دوشكا عن نيّتها محاولة اختراق الرّبع الخالي من جديد، والذي شجّعها على ذلك أنها زارت شيخ الرّوَلة نوري الشعلان في داره بالحيّ الذي يُعرف إلى اليوم باسم الشعلان، فتناولت الشاي لديه ورافقته إلى مضاربه في اليوم التالي (إلى عدرا كما نظن). ثم في شتاء عام 1927-1928 عادت لتمضي أسبوعين مع الشيخ النّوري في مضاربه، والتقت هناك عديداً من أصدقاء الضابط البريطاني الشهير لورنس، وكذلك التقت الأمير فوّاز حفيد الشيخ الذي خلفه في شيخة العشيرة بعد وفاته عام 1942.

وهنا نجد تقريراً في صحيفة الدّايلي إكسپريس *Daily Express* عدد 6 فبراير 1928 يشير إلى عزم الكونتيسة الترحال عبر الرّبع الخالي، كما يلمّح إلى احتمال كون زوجها ضالعاً في مشاريع موسّوليني السياسيّة الرّامية إلى التوسّع في الشرق الأوسط.

إنما لسبب لا نعرفه، تبيّن أنّ مخطط الكونتيسة في رحلة الرّبع الخالي قد أخفق (وسيكون السّبق فيه لبرترام توماس)، ولعلّ الشيخ النوري (الذي كان حصيفاً حكيماً) قد أقنعها بالعدول عها. وبعد ذلك، أقامت دوروتيا مع زوجها مدّة في فلسطين، على شاطئ بحيرة طبريّة (بحر الجليل)، وخيّما بضعة أشهر هناك مع بعض عشائر البدو. ثمّ استأنف

الزوجان إقامتهما بدمشق حتى مطلع صيف عام 1928 على الأقل، وصدر في مجلة ***Man*** عدد أبريل 1928 تقرير عن مطاردة الكونت لستة طيور نعام بسيارته في البادية السّورية.

* * *

أخيراً، يبدو أن الزوجين عادا بعد ذلك مباشرة إلى فرنسا، وأقاما في سان كلو Saint-Cloud في الضواحي الغربية لباريس. وهناك على الأغلب كانت وفاة دوروتيا، في نوفمبر من عام 1930، أمّا زوجها فيبدو أنه توفي بعد عام 1932.

* * *

هذا ما استطعنا جمعه حول هذه الرحّالة الألمانيّة – الرّوسيّة العجيبة والجريئة، ذات الطول الفارع والطباع الحادّة والأطوار الغريبة.. ومن مفارقات الدّهر أن الرحّالة الذي حقق الحلم القديم باجتياز الرّبع الخالي (برترام توماس) قد تمكّن من ذلك في العام ذاته الذي توفيت فيه الكونتيسة.

لا يبقى علينا الآن سوى أن نترك للقارئ متعة قراءة كتابها، واعدين بلقاء ممتع جديد مع برترام توماس ومغامراته عبر الرّبع الخالي في كتابه: *Arabia Felix*.

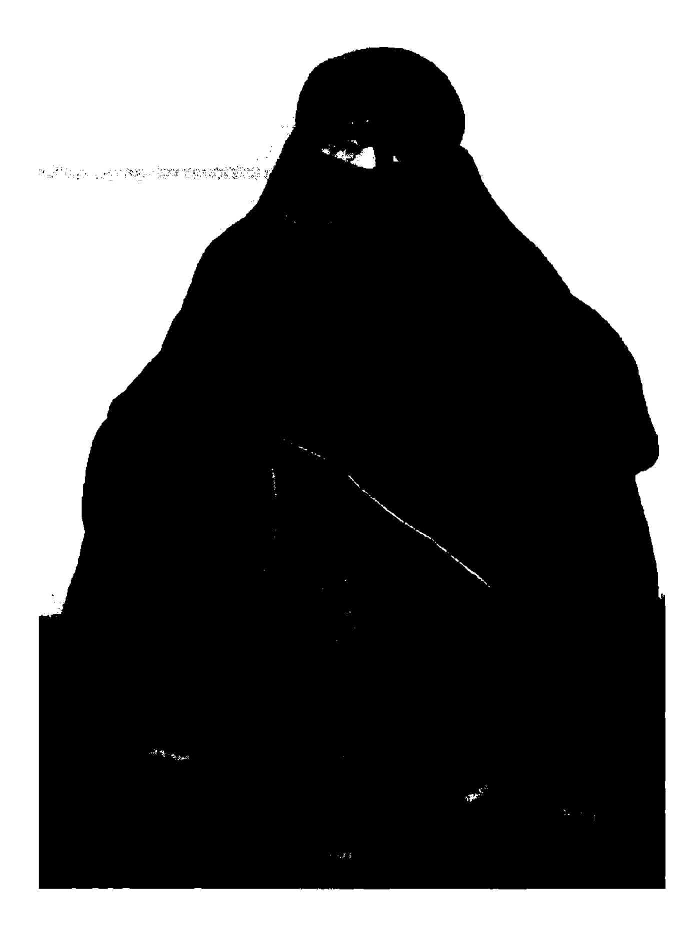
د. أحمد إيبش

* * *

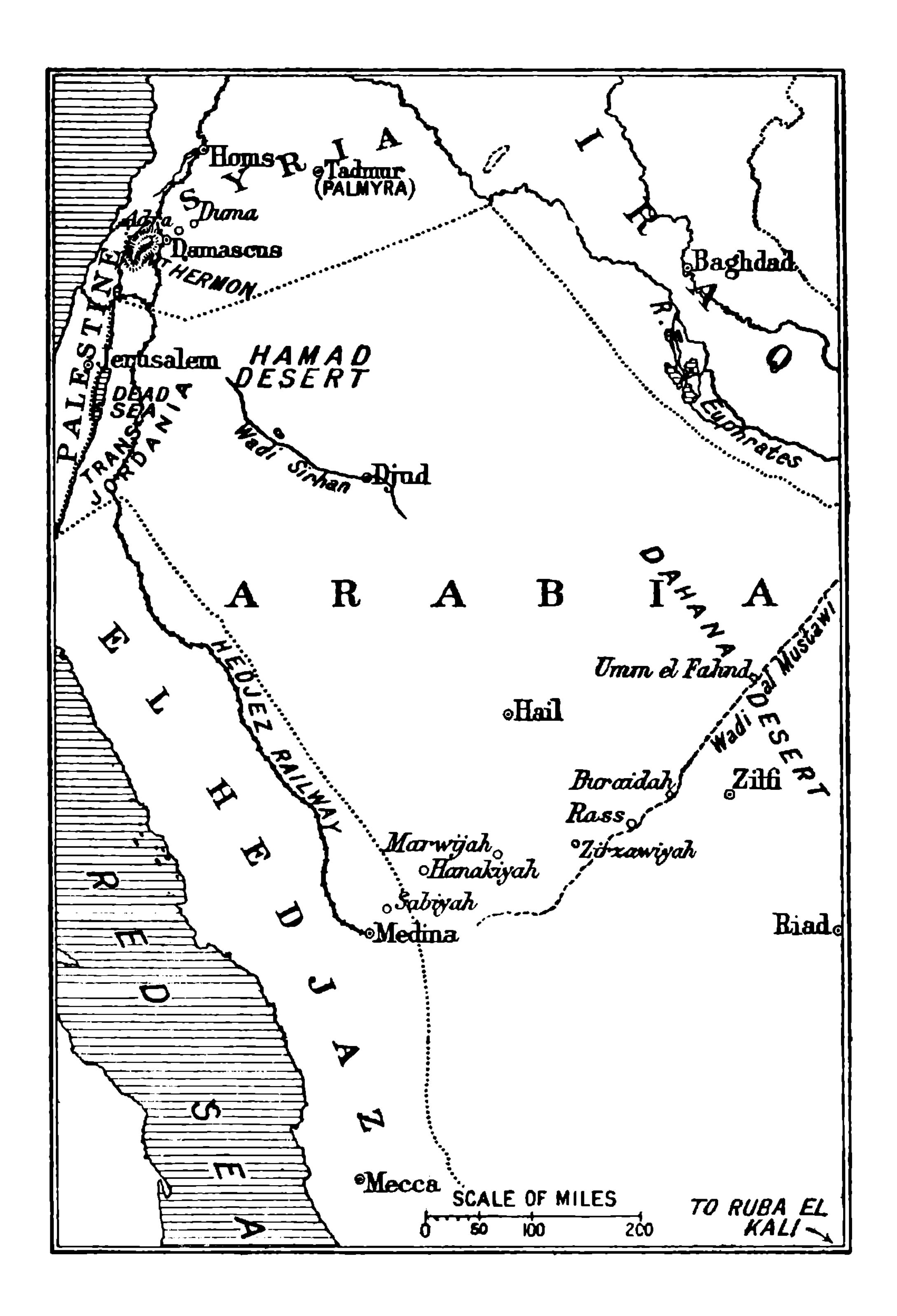


المؤلفة: دورروتيا فون لينكِه

(الكونتيسة مالمينياتي)



المؤلفة: باللباس الشرقي (النقاب)



SYRIA
Homs
Tadmur
(PALMYRA)
Duma
Adra
Damascus
HERMON
PALESTINE
Jerusalem
DEAD SEA
TRANSJORDANIA
HAMAD DESERT
Wadi Sirhan
Djud
IRAQ
Baghdad
Euphrates
ARABIA
DAHANA DESERT
Umm el Fahad
Wadi al Mustawi
Hail
Zilfi
Boraidah
Rass
Marwijah
Hanakiyah
Zirzawiyah
Sabiyah
Medina
Riad
EL HEDJAZ
HEDJEZ RAILWAY
RED SEA
Mecca
SCALE OF MILES
0
50
100
200
TO RUBA EL KALI

THROUGH INNER DESERTS TO MEDINA

BY

THE COUNTESS MALMIGNATI



LONDON
PHILIP ALLAN & CO.
QUALITY COURT

نموذج لعنوان الطبعة الأصلية – لندن 1925

إلى صديقي العزيز هاري دى ڤينت

TO MY DEAR FRIEND

HARRY DE WINDT

الفصل الأول
الحياة في دمشق

عند وصولي إلى مدينة دمشق، كان هدفي الأول إيجاد منزل صغير ذي طابع عربي، بعيد تماماً عن وسط الحيّ الأوروبي، حيث لا يكون من السهل العثور عليّ لأجل دعوتي إلى حفلات شرب الشاي أو إلى النزهات في الهواء الطلق، فهنا يمكنني بهدوء التحضير والاستعداد لرحلتي إلى صحراء البرّ الداخلي، ودراسة عادات العرب، والتعرّف إلى بعض الأصدقاء من شيوخ القبائل العربيّة العريقة التي تتّخذ من دمشق حالياً مستقراً لها، وكذلك على بعض العائلات السورية.

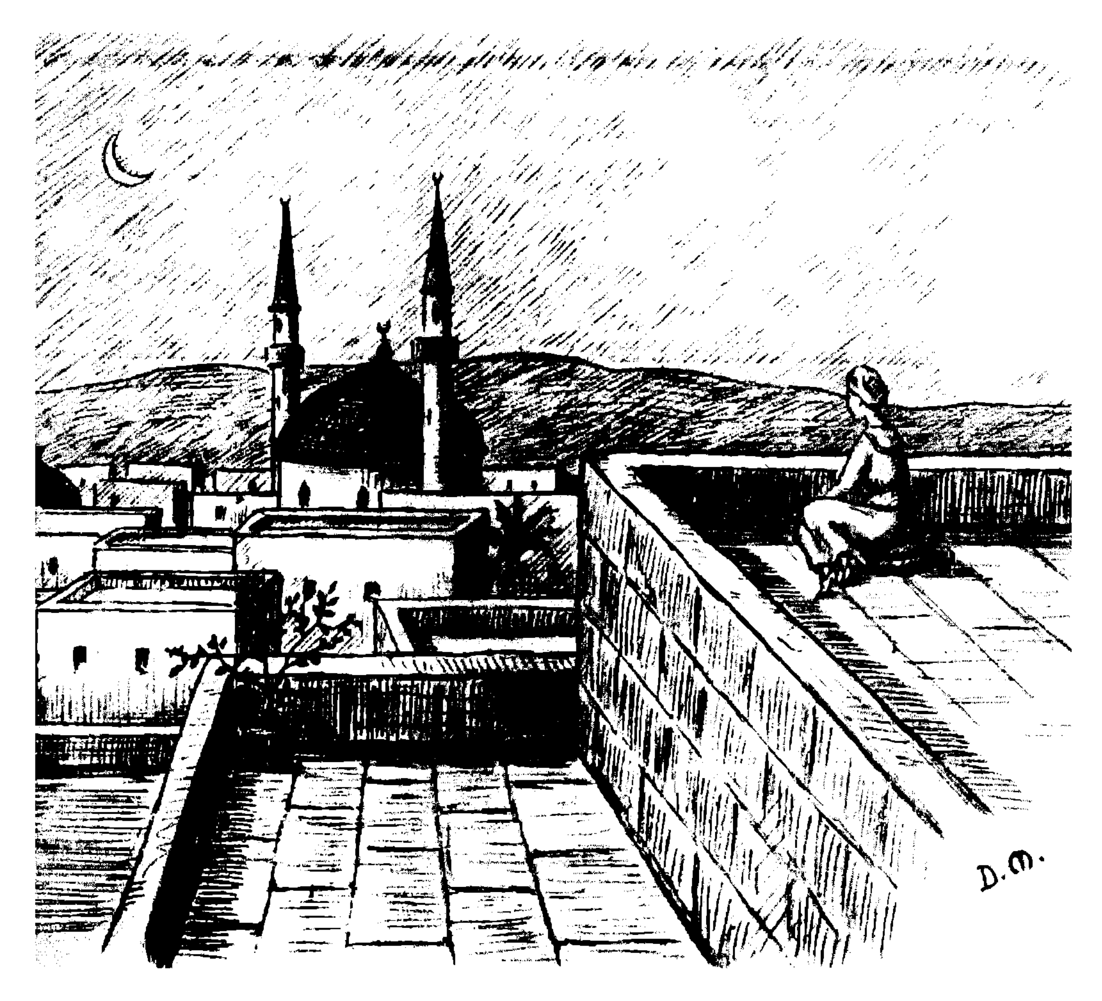
لقد كنت محظوظة جداً بأنني عثرتُ في غضون فترة وجيزة على منزل صغير وفق طلبي وذلك في قلب مدينة دمشق، في نهاية أحد أضيق الشوارع حيث لا يمكن لأيّة عربات أن تمرّ[1]. للوهلة الأولى من الخارج، يبدو هذا المنزل صارماً غير حميم بسبب جدرانه القوية العارية التي تحتوي على نوافذ مسيّجة بقضبان حديدية، ولكن ما إن تلج إلى الداخل، حتى تجد فيضاً من ضوء الشمس والورود والألوان. وكباقي البيوت العربية، تجد عند دخولك المنزل ساحة مفتوحة في وسطها نافورة ماء من الرّخام محاطة بزهور الياسمين، وأشجار البرتقال والليمون التي تعلو الجدران المطلية باللون الفيروزي. أرضية الساحة مبلّطة بموزاييك من الرّخام، تجد بها مكاناً مخصصاً للاستراحة مؤلفاً من أرائك منخفضة ووسائد وكراسي خشبية صغيرة، وزهور ونرجيلة. في هذا المكان بالذات جلستُ، لأدخّن غليوني المائي وصرتُ أحلم على أنغام الموسيقى الناعمة الصادرة من وقع المياه المتساقطة.

على محيط وسط الساحة الداخلية تجد غرف المنزل، ففي الطابق الأرضي تجد غرفتيّ

---

(1) رغم أن المؤلفة لاتذكر مكان هذا الشارع، فلا ريب أنه يقع ضمن حي باب توما، استناداً إلى العرف السائد بنزول الرحّالين الأجانب فيه، واستناداً إلى اسم صاحبة المنزل (تروسين).

الطعام والرّسم، وفي الطابق الأول غرف النوم وعددها اثنتان. ومن الطابق الأول هنالك عدة درجات تقودك إلى أسطوح مزروع بعريشة عنب إلى جانب الحائط الذي تشكّل عنده زاوية ظليلة. ومن هذا الأسطوح يمكنك الصعود إلى أسطوح ثانٍ، ومنه إلى ثالث، يمكن من خلاله التمتّع بالمناظر الخلابة لمدينة دمشق وللجبال المحيطة بها. ويمكن للمرء أيضاً أن يكشف من هناك الساحات الداخلية الرائعة للمنازل المجاورة الحافلة بالزهور ونوافير المياه.



أساطيح دور دمشق

لقد عقدتُ العزم على أن أنام على الأسطوح، علماً بأن جوّ الليالي رطب جداً حيث كنت عند كل صباح أجد ملاءاتي غارقة بالنّدى، لكن ذلك لم يكن ليزعجني أبداً. وكنت أستيقظ في كل صباح قبل انكفاء نور آخر نجمة خافتة في السماء، وعندما كانت تخترق الشمس عتمة الليل بشكل رائع، هذا لأنني لو تأخّرت في النوم، لكان أبصر بي الجيران، والواقع أنّ الثرثرة والقيل والقال بدمشق شيء مريع ينبغي تجنّبه حسبما تمّ تنبيهي.

صاحبة المنزل الذي أسكن فيه، الست تروسين[1] Sitt Trusin، سيدة عجوز، تبدو آثار الزمن على وجهها، ومن شعرها تتدلّى على ظهرها ضفيرتان صغيرتان. لقد اتفقتُ معها عند السكن أن تعدّ لي الطعام وتعتني بترتيب المنزل. عند وجودها في الدّار، كانت تنتعل في رجليها قبقاباً خشبياً بارتفاع ستة إنشات[2]، مطعّماً بالصّدف، وله فوق أصابع القدم سير فضّي. كان يصدر صوتاً مزعجاً جداً عند طقطقته بالأرض الحجرية عند كل خطوة كانت تقوم بها، ولقد كنتُ مجبرةً على سماع هذا الضجيج طوال اليوم، وحتى في بعض الأحيان كان هذا الأمر يمنعني من التركيز على عملي، ويقلقني عند استراحتي وعند قيلولتي، وذلك لأنّ هذه العجوز المسكينة كان يحلو لها أن تتحرّك باستمرار[3].

كانت تعدّ الطعام بشكل عشوائي. وتشكّ اللحم المقطّع قطعاً صغيرة مكعّبة في أسياخ حديدية ثم تشويه، إلى درجة أن طعمه يصبح مفعماً برائحة الدخان وقاسياً من فرط الشيّ، وبالنسبة لي لا يمكن أكله. كانت تقوم بإعداد الطعام على أرضية المطبخ بجانب نار موقدة من الفحم، وكانت تلقي جميع لوازم الطبخ على الأرض. لم تكن شروط النظافة في المطبخ شيئاً يدعو إلى الرّضا، وبعد أن شاهدتُها مرّة تحضّر وجبة الطعام، لم أعد أتقبّل منذ ذلك الحين أن آكل سوى الأرز، والبيض والفاكهة، حيث أنّ الأخيرة متوفرة بكثرة، فثمّة درّاق رائع وعنب طيّب بثمن قرشين للأربعة پاوندات.

---

(1) بالطبع هذا ليس من الأسماء الشائعة بدمشق، بل هو منقول عن الفرنسية. وربما حتى كان محرفاً عند النقل من خط المؤلفة عن: فروسين؟ فهذا الاسم الفرنسي وارد في حي باب توما، حتى أن ثمّة عائلة معروفة بهذا الاسم حتى اليوم.

(2) هذا القبقاب كان يعرف بدمشق باسم: القبقاب الشبراوي.

(3) الواقع أن أهالي دمشق كانوا معتادين على القباقيب العالية التي تحمي القدمين من برد بلاط الدّيار ومن الرطوبة. ولقد انقرضت هذه القباقيب الشبراويّة في عصرنا.

لقد مكّنني سكني في وسط دمشق من التعرّف إلى مختلف أنواع شوارعها المتلوّنة[1]. هناك ثلاثة أسواق طويلة مغطاة بالكامل، وهي تعتبر الأسواق الرئيسية. جميع المحلات مفتوحة بالكامل إلى الشارع، وخلف الأسواق يمكنك مشاهدة أفراد من رجال العرب جالسين في مجموعات، أحياناً من اثنين أو ثلاثة، مجتمعين لحلّ رموز رسالة (قراءتها)، أو يدخّنون النرجيلة، لا يكترثون أبداً لأي مشترٍ قد يمرّ. ويمكنك أيضاً مشاهدة رجل مسنّ ذي لحية بيضاء، يضع نظارات سميكة، ويلفّ حول طربوشه شالاً أخضر يدلّ على أنه قد قام برحلة الحج إلى مكّة المكرمة، وهو يقرأ القرآن الكريم جهاراً على أسماع الجميع. في هذه الأسواق توجد محلات من جميع الأصناف، من أشغال النّحاس اليدوية، والحرائر، والأقمشة، وحتى المنتوجات الأوروبية بذوق رخيص وأثمان باهظة.

هناك دائماً حشد كثيف يرتاد هذه الأسواق حيث التدافع ذهاباً وإياباً. تجد رجال البدو يرتدون عباءاتهم الفضفاضة، مع شماخاتهم الرائعة على رؤوسهم، وهذه الأخيرة تتألف من شالات ملونة بشراشيب مزركشة مربوطة بعقالين أسودين من وبر الجمل المنسوج بصنعة رفيعة. وألوان العباءات في العادة إما سوداء أو بنيّة، وهي مطرزة بشكل وافر باللون الفضي أو الذهبي. وتحت العباءة يرتدون قميصاً أبيض طويلاً شبيهاً بالإزار، مربوطاً من الوسط بنطاق ليلكي، ومع هذا كله ينتعلون جزمات طويلة من الجلد الأحمر. أما النساء اللواتي كنّ يعبرن فيبدون أقل جاذبية، متدثّرات تماماً بلباسهن الأسود أو البني الواسع الفضفاض الشبيه بالأكياس على أجسامهن، ووجوههن أيضاً مغطاة إلى أعينهن بـ «يَشْمَق»[2] أسود سميك.

فقط عند مرور النساء، ومن بينهن ثلاثة يركبن على ظهر حمار، كنّ يضفين جواً رائعاً إلى المشهد هناك. ولكن بنفس رزانة هدوء البدو، تجتاز قطعان من الجمال الأسواق، وعلى الجميع أن يفسح لها المجال لكي تمرّ. ومن وقت إلى آخر يتعثّر المرء بكلب نائم على قارعة الطريق، حيث تجد من الكلاب حشوداً كبيرة، وعلى الإنسان كذلك أخذ الحيطة والانتباه من القائمتين الخلفيتين للحمير، التي قد تبادر من فرط الحيويّة[3] أو بقصد الأذى إلى الرّفس بشدة.

---

(1) لا يعد حي باب توما سوى بضعة دقائق عن سوق المسكيّة والحميديّة ومدحت باشا. وكان كل ما يلزمها العبور من سفل التلّة إلى المنكلاني وقناية الحطب ثم القيمريّة فالنوفرة والقباقيبّة لتبلغ سوق المسكيّة.

(2) اليشمق تسميّة تركيّة: Yaşmak، يقابلها بدمشق: الملاية، وبمصر: الحبرة.

(3) كتبت المؤلفة العبارة بالفرنسية: *joie de vivre*.



«على الجميع أن يفسح لها المجال لكي تمرّ»

هناك شوارع وأسواق أخرى، كل منها يختص بتجارة معينة. أحد هذه الأسواق يختص بصانعي الأحذية حصراً[1]، وسوق ثان آخر يختص ببيع الحرائر[2]، وفي السوق الذي يليه تصنع خراطيم النرجيلة، وسوق آخر توجد فيه مشاغل صناعة القباقيب الخشبية المطعّمة[3]. هذا السوق الأخير أثار اهتمامي بشكل بالغ، والرجال يعملون خارجاً، وحرفية عملهم تتّسم أحياناً بالإبداع. وفي شارع آخر سوق يختص بصناعة سرائر الأطفال المحفورة من الخشب والمطعّمة بالكامل بالصّدف[4]، وبأشكال رائعة جداً حتى أنني بالتأكيد سآخذ واحداً منها عند رجوعي إلى أوروبا.



«ومن بينهنّ ثلاثة يركبن على ظهر حمار»

---

(1) هو سوق البوابجيّة، وكان أيضاً على الزاوية الشمالية الغربية للقلعة سوق الزرابليّة.

(2) يعرف في يومنا بسوق تفضلي يا خانم.

(3) وهذا سوق القباقبيّة الشهير القائم بحذاء الجدار القبلي للجامع الأموي.

(4) لعلها تقصد سوق الأروام المتفرّع من الحميديّة جنوبيّ نصفه الغربي.

على ذلك، أمكنني في وسط هذه الأسواق أن أتجول لساعات وساعات، دون أي تعب أو ملل من أجواء الحياة الرائعة التي تفور من حولي. فالتجّار الموسرون، والحرفيون البسطاء، والبدو ذوو النظرات الحادة، والفَعَلة الدّائبو الحركة، كل هذا التنوع والاختلاف بين هذه الأسواق يشكّل حركة ممتعة يستحيل وصفها[1].

خارج هذه الأسواق الكبيرة تجد الطريق الرئيسية التي توصلك إلى محطة قطار الحجاز[2]. وفي أيام معينة من الأسبوع، تجد هذه الطريق حافلة بالبدو مع نسائهم، الذين ينزلون بخيامهم في مكان ما خارج مدينة دمشق. ترتدي النساء في العادة ملابس حمراء مطرّزة، ووجوههن نصف مغطاة، وجبهاتهن موشومة. وهن ينتعلن جزمات حمراء عالية، مثل رجالهن.

في هذا الطريق توجد عدّة فنادق عربية، وتجد كثيراً من البدو جالسين خارج هذه الفنادق على كراس منخفضة يحتسون قهوتهم، ويدخّنون النرجيلة. وفي كل مرة كنت أمرّ بجانب هذه الفنادق العربيّة، كنت أسترق النظر بلمحة ولبرهة قصيرة إلى داخلها، فأرى الباحات والنوافير الخلابة، ونزلائها الغريبين، فتنتابني رغبة عارمة بالدخول!

في هذا اليوم بالتحديد، تشجعت وبعزم قرّرت أن أدخل أحد هذه الفنادق[3]. ولكنني كنت أخشى ألاّ يُسمح لي بالبقاء، إنّما لحسن حظي كنت مخطئة. جلست في مكان هادئ بعيد عن الأنظار، خلف بعض الأشجار بحيث لا يمكن لأي أحد أن يراني، ولكنني بالمقابل كنت قادرة على رؤية كلّ شيء وكلّ الموجودين. أحضر لي «الولد» بعض القهوة ونرجيلة، وتُركتُ على هواي لآخذ وقتي بالنظر والتأمّل.

كانت ساحة هذا الفندق أجمل مكان شاهدته في حياتي، ففي وسطها توجد ثلاثة نوافير ماء رخامية من اللون الأبيض الناصع النظيف، وعلى أطرافها تلعب طيور يمام بيضاء صغيرة.

---

(1) من الواضح أنها تصف سوقي الحميديّة ومدحت باشا، ويؤكد ذلك كلامها عن خروجها إلى الطريق الرئيسي الموصل إلى محطة الحجاز.

(2) ما زال بناء هذه المحطة قائماً إلى يومنا الحاضر، وتحمل الساحة اسمه: ساحة الحجاز، إلى الغرب من شارع جمال باشا (النصر اليوم). وإلى الغرب من الساحة حي الحلبوني وجنينة النعنع، على كتف نهر بانياس.

(3) لا تذكر المؤلفة أية تسميات للأماكن خلال وجودها بدمشق، ولا تواريخ ولا تفاصيل وافية تدلّ بدقة على السنة التي جرت فيها رحلتها. وبالنسبة للفندق المذكور فلعلها تعني واحداً من أشهر ثلاثة فنادق آنذاك: فندق ڤيكتوريا، الأوريان پالاس، أو داماسكوس پالاس. أو قد يكون مجرّد فندق صغير في نواحي شارع جمال باشا.

يلاحظ أيضاً وجود أعمدة نحيلة ورشيقة معرّشة بالزهور تدعم سقف مصطبة علوية، يتدلّى منها أفخم السجاد وأرقاه. كما تحتوي ساحة الفندق أيضاً على العديد من أنواع الورود والأشجار، وقد تم توزيع كراسٍ وطاولات صغيرة بين الزروع بطريقة رائعة. من مكاني هذا، كنت قادرة أن أرى في الداخل قاعة كبيرة تحتوي على فسقيّة ماء كبيرة. من وقت لآخر، كان يدخل عربي، يخلع نعليه، ويغسل وجهه ويديه، ويسجد ووجه نحو مكّة المكرمة لتأدية الصلاة. ومن بين الزوّار يوجد العديد من المسلمين من مختلف بقاع الأرض، يرتدون ملابس متنوّعة من مختلف الأزياء. فهناك زوّار من أصل هندي، وفارسي، وبعض المسلمين من مصر، وتونس والمغرب، والعديد من البدو. كان هؤلاء البدو عند جلوسهم يخلعون نعالهم دوماً، ويتربّعون ثمّ يبدؤون باللعب بإبهامي رجليهم كدلالة على السعادة.

لقد أحببتُ هذا الفندق الصّغير[1]، فإنه بالفعل يمثل لي فصلاً حقيقياً من روايات «ألف ليلة وليلة». طوال فترة وجودي في الفندق لم تتمّ مضايقتي إطلاقاً ولا حتى لاحظ وجودي أحد، وتفاجأت أيضاً أنه في الطرقات لم تتم مضايقتي أو لم ألفت نظر أيّ من المارّة أو الباعة.

السرّ في ذلك كان يعود إلى طلبي للثياب العربية، كي لا يتمكن أحد من ملاحظتي أينما ذهبت. والأمر الثاني الذي طلبته بإلحاح فضلاً عن ثيابي العربيّة هو تأمين حصان لي. لقد طلبت هذا الأمر من الدكتور خليل[2]، وهو رجل سوري له علاقات بشيوخ العرب، بأن يشتري لي حصاناً، وبالفعل أمّن لي فرساً عربيّة أصيلة. ومن أكثر الأماكن التي كنت أحب ركوب الخيل إليها قرية «دمّر»[3]، التي تبعد عن دمشق مسافة ساعتين. والطريق إليها يمرّ بأكمله بمحاذاة نهر بردى، أولاً عبر سهول منخفضة، ثم فجأة بين جبال عظيمة شامخة. وهذا هو المكان المفضل لدى السوريين لقضاء فترة بعد الظهر، وكان العديد من عربات نقل الركاب المليئة بسبعة أو ثمانية ركاب يمرّ من جانبي، ولكن ركابها كانوا فقط من الرّجال ولا وجود لأيّة امرأة على الإطلاق.

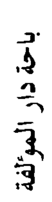
---

(1) هذه الملاحظة إذن تنفي كونه أحد الفنادق الثلاثة الكبرى.

(2) لا إشارة في الكتاب برمّته إلى كنية الرجل، رغم تردّد ذكره مراراً.

(3) يرد الاسم في الكتاب: دوما Duma، وهناك بلدة كبرى بهذا الاسم إلى الشمال الشرقي من دمشق (صارت اليوم مدينة عامرة)، ولكن ما تذكره المؤلفة عن كون الطريق يحاذي نهر بردى ء الجبال الشامخة (أي خانق الربوة)، ثم ما تذكره أدناه عن انقسام نهر بردى إلى خمسة فروع، إنما يؤكد بغير شكّ أن المقصود دمّر وليس دوما.





باحة دار المؤلفة

الستّ تروسين

هناك يمكنك أن تتعرف على أهل الأناقة في دمشق، الذين يرتدون آخر موضة للأزياء السورية: سترة أوروبية وسروال، كلاهما بألوان زاهية جداً، والمفضّل بينها اللون الأصفر القاتم بتقليمات عريضة، وقميص بدون قبّة بلون الزهر أو الأزرق، بلا معطف، ومظلة كبيرة للشمس بلون الأزرق الباهت أو الأخضر الباهت.

في «دمّر»، ينقسم نهر بردى إلى خمسة فروع، وبأعلى هذا المقسم للنهر يوجد مقهى عربي، فيه العديد من المقاصير المظللة الخضراء. وهنا يمكنك احتساء القهوة السوداء الطيبة، وبعض الزيتون و«كْراسي»[1] *craci* المشروب الأساسي في دمشق، وتدخين النرجيلة.

بما أنني عرفت أن وقت بعد الظهر هو الوقت المفضل لدى كل من السوريين والأوروبيين، فقد كنت دائماً أركب عند العودة حوالي الساعة السابعة، لتفادي الازدحام والحرّ. وغالباً كنت لا أعود قبل منتصف الليْل. كم كنت أحب أن أعود أدراجي في الظلام، عبر الجبال العالية السّوداء، والنجوم تلمع وتسطع بشكل يخيّل إليّ أنني كنت أستطيع لمسها بيدي! والمزيّة الأخرى في الركوب في وقت المساء، أنني كنت أقدر أن أضع عباءة فوق لباسي الأوروبي، وتغطية قبعتي بشال على شكل عمامة. فلهذا، عند ركوبي في الظلام، كان الجميع يعتقد بأن الشخص الذي يمر بجانبهم رجل سوري، ولهذا كنت أركب على هواي ولم يضايقني أحد البتّة. ولكنني كنت أعلم أنّه ليس هناك الكثير من الأوروبيين أو السوريين لديهم الجرأة على ركوب الخيل في الليل. ولكن على هذا الطريق لم أتعرّض لأي حادث يذكر، ولو أنني قبل ارتدائي العباءة تعرّضت عدّة مرات إلى الرشق بالحجارة.

لقد كنت أعلم أنني مجنونة لكي أُغامر وأذهب لوحدي لركوب الخيل في الظلام، حيث أنه من المعلوم أن سكان القرى المحيطة بدمشق قوم عُتاة، وهم أشد خطورة بكثير

(1) تسمية غريبة جداً، فما هو هذا المشروب الأساسي بدمشق الذي لم نسمع به بحياتنا؟ بحثتُ مطولاً عن هذه التسمية فلم أظفر بها، ولا وجود لها في ذاكرة الدماشقة. حتى لفظها غير واضح، فإن كان الاسم فرنسياً فلفظه: كْراسي، وإن كان إيطالياً فلفظه: كراتشي، أما في الإنكليزية فلا يستقيم مثل هذا اللفظ أصلاً. حاولت تقريبه من أي اسم آخر قد يكون مصحفاً عنه فلم أفلح. وعموماً فالمشروبات الشائعة بدمشق آنذاك هي الشاي والقهوة والليمون وعرق السّوس واليَنسون والقرفة والزنجبيل والتّنا مكّي والكمّون والزهورات بأنواعها ومغلي النعنع والبابونج وما شاكلها، وشراب التوت والقمر الدّين وعصير الفواكه بأنواعها. لا ريب عندي أن التسمية مصحّفة، وثمّة احتمال أنها تشير إلى العَرَق arak فرسم عمّال الطباعة الاسم على هذا الشكل؟

من البدو. أخبرني الدكتور «مَكّينا» Dr. McKenna الطبيب الإنكليزي المقيم بدمشق، كيف تعرّض للتوقيف على طريق «تَدمُر» بالقرب من دمشق، وتمّ سلبه والتعدّي عليه بالضرب. وعلى الطريق ذاته، تعرّض ابن الطبيب المذكور للضرب المبرّح حتى كاد يموت على يد بعض هؤلاء الهمج. ولكن كلّ إنسان يحب أن يمرّ بتجربته الخاصة، ولا ريب أنني يوماً ما سوف أذهب إلى إحدى هذه الطرقات في الصحراء بالرغم من كل التحذيرات.

ذات يوم، قرّرت أن أقوم بتجربتي الخاصة، فركبت الخيل باتجاه طريق «تَدمُر». كانت الطريق سيئة للغاية، وعرة ومليئة بالحصى والحفر، ممّا أتعبني وأتعب حصاني. لقد أوغلت إلى أن وصلتُ إلى مشارف الصحراء، ممّا استغرق مني حوالي مسيرة خمسة ساعات. وفي خلال طريقي مررت بعدة قرى، والتقيت عديداً من سكانها، فلم يعرني أيّ منهم أدنى اهتمام. في طريق العودة، كنت أسير ببطء، وسرعان ما حلّ الظلام. وعلى بُعد مسافة مسيرة ساعتين من دمشق توقفت لإراحة حصاني، ولأبحث عن ماء لي وله. فبهدوء مررت بالقرب من الحصان، وأنزلق عنان الحصان من على ساعدي. فجأة تمّ احتجازي من الجانبين وتوقيفي. كان الظلام شديداً لدرجة أنني لم أستطع أن أرى وجهي الرجلين اللذين أمسكا بي. تظاهرتُ بأنني لم أجد أيّ أمر غير عادي في تصرفهما، وسلّمت عنان الحصان إلى أحدهما، وطلبت منهما بكل هدوء ولباقة، إذا كان بمقدورهما أن يساعداني بإيجاد بعض الماء وبرسيم bersim للحصان، حيث أنّ كلينا كان متعباً. فقالا: نعم، بمقدورهما أن يؤمّنا لي ما طلبته، وذهبنا. كانا مازالا يمسكان بي ولكن بقبضة أقل شدّة من الأول. قاداني نحو مرج، وكان هناك بالفعل ماء وبرسيم للحصان.

جلستُ وتعاملت معهما كأننا في نزهة، وطلبت منهما أن يحضرا لي بعض المشمش mishmush، فذهب أحدهما لقطفه. أما الآخر فقام بلفّ بعض السجائر وقدم لي واحدة، فرفضتها. ظننت أنهما طبعاً شجاعان! كان الذي ذهب لإحضار المشمش قد عاد، وقدّم لي المشمش منسقاً بعناية على ورق أخضر داخل قبعته. حتى الآن كنت أجد الأمور رومانسية أكثر من أن تكون خطيرة!

بعد أن ظفرت أنا والحصان بالاستراحة المطلوبة، وقفت كي أستعدّ للذهاب، فإذا بهما بلطف يحاولان إبقائي. مع ذلك، دفعت بهما جانباً، فلم يُمانعاني مع ذلك، ومشينا نحو

الطريق من جديد. طوال هذا الوقت كنت أتكلم معهما كما لو كانا أصدقاء لي، وكأنني كنت جاهلة تماماً بنواياهما المبيّتة. وعند وصولنا إلى الطريق، شكرتهما لمساعدتي على إيجاد الماء والطعام لحصاني، وتأهّبت لركوب صهوة الحصان. فإذا بأحدهما يمسك بي ويحتجزني، ويلوي ذراعي خلف ظهري. أمّا الآخر فقام بتفتيش ملابسي، فلم يجد شيئاً مع الأسف. ولكن تحت سترتي، كنت أرتدي حزاماً يحتوي على بعض المال، حوالي اثنين أو ثلاثة جنيهات. لقد جسّ الحزام ووجد الجيب الصغير، وبهدوء قام بإفراغه. بعدئذ، حاولا أن يأخذاني من جديد إلى المرج[1]، فهنا شكرت حظي لأنني اتّبعت عادة شائعة آنذاك. فلقد كنت أرى البدو غالباً يحملون مسدساً داخل جزمهم، فاتبعت هذه الحيلة ورتّبتُ بداخل جزمتي المخصصة لركوب الخيل نوعاً من قراب، كنت أدسّ به مسدّسي من نوع براونينغ Browning[2]. ولو أنني كنت أحمله في حزامي لكانا عثرا عليه وأخذاه أيضاً. فما كان مني إلا أن سحبت المسدّس في لحظة واحدة وأطلقت منه طلقتين، وجذبتُ عنان الحصان وقذفت نفسي على السّرج، وهرعتُ منطلقة! جرى ذلك كله بسرعة فائقة، بحيث أنني لم أعد أعرف ماذا حصل بعد ذلك. وبعد ذلك عدتُ إلى المنزل بدون أيّ انزعاج يذكر[3].

* * *

(1) يبدو أنهما كانت في نيتهما (على ذمّة رواية المؤلفة) الإتيان بأمور تنافي الأدب.

(2) طراز شهير من المسدسات الصغيرة من عيار 7.65 ملم، كان يسمى بدمشق: المبروم.

(3) لا ندري إن كان في وسعنا تصديق هذه الرّواية أم لا.. هل هي صادقة، أم هي مجرّد محاولة من المؤلفة لإضفاء الإثارة على النص، ولتظهر بدور البطولة؟ ثم لم تذكر لنا: هل أطلقت الرصاصتين على الرجلين أم في الهواء؟ أهون ما نفعله، أن نقرأ ونستمتع فحسب.

الفصل الثاني
المجتمع السوري

أحد أصدقائي السوريين، وهو نَدرة مُشاقَة[1]، سألني في أحد الأيام عمّا إذا كنت أرغب في زيارة بعض العائلات السورية، لدراسة تقاليدها ورؤية داخل بعض المنازل الدمشقية القديمة الرائعة. وفي الوقت نفسه جلب لي صديقي ثلاث دعوات لزيارة بعض العائلات السورية المعروفة خلال المساء. وبما أني أردت بشدّة تلبية هذه الدعوات المسائيّة، فقد وافقت بسعادة على الذهاب في تلك الليلة بالذات. وهكذا، في حوالي الساعة التاسعة والنصف بعد العشاء، اصطحبني ندرة مشاقة وذهبنا إلى هناك.

من المؤكد أنهم لا يبذّرون على سهراتهم، فمنذ وصولي وحتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، لم يقدّموا لنا سوى فنجان قهوة وكوب من الليموناضة. هذا كل شيء![2].. آه، كم كان هذا متعباً لي! كان الزوّار متحلّقين على الديوان المنخفض على المنصّة، رجالاً ونساء كلاً على حدة، وكان هناك كرسي محضّراً لي في الوسط. كانوا كلّهم جالسين حولي منصتين لكلماتي وكأني عرّافة دلفي الشهيرة the Delphic Oracle. كانوا يتوقعون مني أن أقول شيئاً ذكياً بطريقة مذهلة أو مثيرة على نحو غير عادي. حافظوا كلّهم بإصرار على صمتهم، وعندما كنت أحاول الدخول في حديث مع أحدهم وقد بدا لي أقل مللاً، يصرخ الباقون منبّهين: «لا.. يجب أن توجّهي الحديث لنا جميعاً في الوقت نفسه!».

---

(1) ندرة مشاقة من الشخصيات المعروفة جداً بدمشق في النصف الأول من القرن العشرين، اشتهر بهواية الصيد، كما كان هاوياً للرسم وشارك بأول معرض أقامته نقابة الفنانين التشكيليين بدمشق عام 1951. ومجرد ذكر اسمه هنا يعطي الكاتبة قدراً وافياً من المصداقيّة، ولو أنها نادراً ما تذكر الأسماء كاملة (كالدكتور خليل الذي لم نعرف كنيته)، أما أهم الأسماء الواردة في النص فهي: ندرة مشاقة، محمود البسّام، والشيخ سلطان الطيّار شيخ الولد علي (لا الرّولة كما سيرد أدناه).

(2) كتبت المؤلفة العبارة بالفرنسية: *Voilà tout!..* على عادة مثقفي الإنكليز يومذاك.



«إصرار على الصّمت»

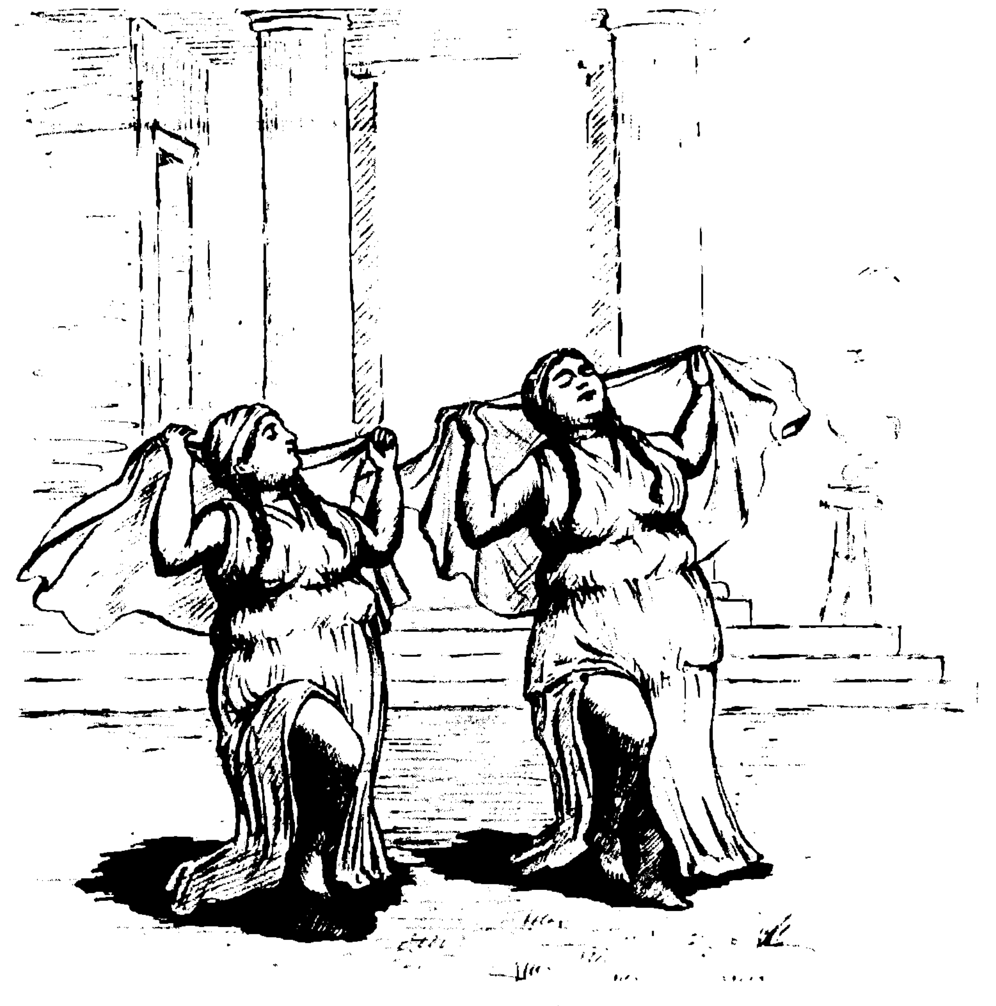
شعرت أنّ هذا مستحيل، وأنّ شجاعتي في الكلام قد خانتني، فبقينا صامتين، محدّقين في بعضنا البعض. لقد انتابني اكتئاب تحت التأثير المغناطيسي لكل هذه العيون المحدّقة!

عادةً، عندما يكونون مجتمعين فيما بينهم، فإنهم يثرثرون ويتكلّمون كلهم في نفس الوقت، حتى إذا سمعهم أحد ظّن أن شجاراً عظيماً يندلع، أو أنّ شيئاً قد حصل في بيت الببغاء. إلا أنه على الرغم من ذلك، أفضّل سيل الألسنة على ذلك السكوت وتلك العيون المحدّقة بي.

حاولت إقناع الشباب بالرقص أو الغناء، لكن دون جدوى. «هنا الناس لا يرقصون، ويُعتبر الغناء غير لائق للنساء في هذا البلد!».. ولم يكن هناك مسرح أو كتب للكلام عنها، ولم يكن لديهم أيّة اهتمامات فكريّة من أيّ نوع، فقط «القيل والقال»، ومجدّداً «القيل والقال».

أخبرتهم بأننا في أوروپا نذهب للرقص من حين لآخر، وأنّ الشابات يدرسنه، وذلك

يمنحهن الرشاقة والجمال. عندئذٍ، توسّلت إلي والدة «فيلتين يافعتين» بأن أعلّمهما الرقص، آملةً أن يُحسِّن ذلك في شكلهما الخارجي. فمن باب السخرية وعدت أن أعطيهما بضعة دروس على طريقة إيزيدورا دنكان[1] Isidora Duncan لأن الفكرة كانت جدّ مسلية بمشاهدة هاتين الكتلتين الغشيمتين من اللحم البشري في زيّ يوناني، تجرّبان رقصاً يونانياً!



«فيلتان صغيرتان»

(1) إيزادورا دنكان (Isadora Duncan 1927–1877) راقصة أميركية مشهورة، يعدّها كثيرون أم الرقص الحديث.

من المؤسف أن النساء هنا يملن إلى السّمن الشديد، رغم أنّهن عموماً نساء جدّ جميلات، ولهنّ بشرة نضرة، لا تتعرض للشمس أو للهواء كثيراً. ولكن أن تكوني جميلة هنا يعني أن تكوني سمينة! كثيراً ما يقولون لي: «آه! سيدتي كم أنتِ جميلة. لكن يجدر بك أن تزيدي وزنك قليلاً!»[1].. مجاملاتهن مضحكة جداً، فعلى سبيل المثال، عندما يتمّ تعريفي على إحداهنّ فهي تقول على الفور: «مدام، كم أنتِ جميلة». ولا شيء سوى ذلك. فبمَ عساي أردّ على هذه السخافات؟ فمن عادتهن أن يغرقن المرء بالإطراءات، التي هي الشكل الوحيد للمحادثة لديهن. وإني لأتساءل كيف يستطعن البقاء على هذا النّحو والتحدث عن لا شيء حتى الساعة الثانية فجراً.



«أن تكوني جميلة هنا يعني أن تكوني سمينة»

للهروب منهن قليلاً، طلبت من صاحب المنزل اصطحابي في جولة داخل داره. إلى جانب النافورة الكبيرة المرخمّة في باحة المنزل، كانت توجد أيضاً واحدة في غرفة الطعام وأخرى في حجرة الجلوس. كانت الجدران وسقف الغرفة معمولة من الرّخام المزخرف المطعّم بالموازييك الملوّن. كانت الغرف جميلة، ولكن جمالها وتناسقها قد تشوّه بسبب اكتظاظها بالأثاث الرّديء الذوق.

---

(1) من الواضح أن الحديث كان بالفرنسية، التي يعنى بها مسيحيّو دمشق دون سواها من اللغات الأجنبيّة. وترد الجملة الفرنسية في الكتاب:

Oh! Madame, que vous êtes belle. Mais il faut grossir un peu!

استقبلني صاحب المنزل، وهو رجل عجوز، مرتدياً بذلة «سموكنغ» ومنتعلاً حذاءً واطئاً، ولكنه بدا مرتبكاً نتيجة ارتدائه لزي ليس معتاداً عليه. وبعد مشاهدته طوال عشر دقائق، أبديتُ إعجابي بزيّه الأوروبي وشكرته لأنه شرّفني بإرتدائه، وأضفت: «لكنّي بالأحرى أفضّل الزي الدمشقي الرائع». فإذا به يغادر وبسمة ارتياح تعتلي شفتيه، ويظهر مجدداً بثوبه السّوري الفضفاض وبابوجه الأصفر[1].

بدا غريباً كيف أن جميع سكان دمشق على صلة قرابة بعضهم ببعض. فبعد حضوري السهرة الأولى، تلقيتُ دعوات كثيرة تلحف عليّ بالحضور ليفخروا بوجودي بينهم كما سبق ولبّيت دعوة «أخيهم»، أو «ابن عمّهم» «نسيبهم»، «أصهارهم»، «أعمامهم»، إلخ.

وحتّى «الست تروسّين» العجوز كانت جزءًا من هذه القرابة المركّبة. فبينما كنتُ أحضّر نفسي للذهاب إلى السهرة المقامة في منزل المصرفي الأول بدمشق، أتت تروسّين إلى غرفتي، مرتديةً أفضل لباس libas تملكه، وكان من الحرير الأسود، ساترةً شعرها بشالٍ ملون صغير، وعوضاً عن القبقاب انتعلت حذاء ذا عقدة. نظرتُ إليها بدهشة كبيرة، غير قادرة على استيعاب هذا الإشراق المفاجئ. فقالت لي بأننا ذاهبتان «سوا ـ سوا» sauwa– sauwa (سوياً) إلى سهرة المصرفي، فقد كان هذا الأخير صهرها، وهي مدعوّة. كان من المضحك أن أرى في ذلك المساء المرأة التي تعمل لدي كخادمة (ولو على نحو غير مُرضٍ)، جالسةً بيننا بكبرياء، ترتدي أفضل ما لديها وتتصرّف كسيدة.



دمشقي من الأعيان

---

(1) لم يعد للباس العربي التقليدي وجود بدمشق، وصار الجميع يرتدون اللباس الفرنجي.

وقد فوجئتُ أيضاً بوجود الرجل الذي باعني حذاء في الصباح، والذي كان يرتدي معطفاً ذا أكمام مثنيّة ومئزراً (مريولاً) كبيراً، يؤدّي الآن دور رجل من علية القوم le petit gentilhomme في ثياب سهرة أنيقة. ولكن كما سبق وذكرت، بأن كل سكان دمشق على صلة بعضهم بالبعض الآخر، ولا يستطيع المرء تجنّب المفاجآت.



المؤلفة





تبيّن لي بأن هذه السهرة كانت ممتعة أكثر من سابقتها. كانت باحة المنزل جميلة جداً مليئة بالورود، وشجيرات الياسمين، وقد خيّمت على السهرة أجواء الطابع الفينيسي، فأضيئت المصابيح الملوّنة ونظمت الألعاب النارية. فيما تمّ هذه المرّة إعداد ما يشبه البوفيه: كان هناك العديد من الأطباق الصغيرة، بعضها يحتوي على الزيتون، وآخر على الفجل أو البيض، أو الفول، وبعضها البندورة، باختصار كل أنواع المقبلات. ولكن لم يكن هناك سوى شوكة واحدة لنا جميعاً! تجمّعنا حول البوفيه، ومن وقت إلى آخر كنا نتناول زيتونة أو فجلة، كما أننّا في الدّيار نتناول حبّة شوكولا. وعندما كانوا يريدون التصرّف بلباقة، كانوا يختارون لي شيئاً من الأطباق ويطعمونني.



«الترصيع بالمجوهرات»

خلال السهرة، ارتدت النساء ألبسة حريرية رائعة، وزيّنّ أنفسهن بالمجوهرات التي لم تقتصر فقط على العقود والقلائد والخواتم، بل كنّ يرصّعن ملابسهن بأكملها بالمجوهرات، وحتى في أصعب الأماكن. وكانت المسنّات من النساء يصفّفن شعرهن بضفيرتين تنسدلان على ظهورهن، ترتصف بهما اللآلئ.



«ضفيرتان»

أمّا الرجال، فقد بالغوا أيضاً في وضع الحُلي إلى حد شنيع. فمثلاً كان هناك رجل يضع ربطة عنق محفورة من خشب الأبنوس! وكانت مرصّعة بالماس، وتبدو جاسئة وقبيحة إلى حدّ فظيع. ورغم ذلك فقد كان فخوراً جداً بها لأنها كانت من خشب الأبنوس الأصلي. كان هذا هو الرّجل الشهير بدمشق بكونه الوحيد الذي يمتلك في منزله حمّاماً[1].



«ربطة عنق منحوتة من خشب الأبنوس»

وقد دعاني بحفاوة بالغة لكي ألقي نظرة على هذا الحمّام وأن أستعمله. ولم ير أحد شيئاً غريباً أو سخيفاً في هذه الدعوة. لقد تكلموا عن حمّامه كما لو أنه كان شيئاً

(1) كانت العادة المطلقة بدمشق أن الناس يستحمّون في حمّام السّوق، ولم يكن هناك حمّامات منزلية إلا في كبار القصور، كقصر العظم مثلاً. حقاً إن هذا الوصف الذي ترويه الكونتيسة مالمينياتي عن دمشق آنذاك وصف شائق ممتع وغريب.

عجيباً، وهؤلاء الذين تلقوا الدّعوة ذاتها شعروا بفخر عظيم.

أراد مضيفي إعطائي فكرة عن الغناء والعزف العربيين، فرتّب لهذه المناسبة مغنياً مشهور ورجلين آخرين يعزفان على القانون وعلى آلتين وتريتين أخريين. من المؤكد أن الغناء لم يرق لي. لعلّي كان بوسعي اعتياده بمرور الوقت، ولكن بدا لي وكأن المغني المسكين يبكي طالباً النجدة. كان اللحن رتيباً ومملاً جداً، ويكرّر نوطتين موسيقيتين أو ثلاثاً مرتفعة جداً، وبينما كان الرجل يغني، كان يضع يديه على أذنيه، وتعلو وجهه تعابير المعاناة والألم، بحيث بدا بالفعل وكأنه يصرخ طالباً النجدة. أمّا بالنسبة للموسيقى المرافقة فقد كانت أفضل، أو لعلّها كانت أقرب إلى ذوقي الأوروبي. وبعد كل أغنية كان مضيفي يلقي خطاباً، يشكرني فيه أولاً على حضوري إلى داره، ويمتدح أنماط الحياة الأوروبية والفن الأوروبي، ثم يشكر المغني على أغنيته. وأحياناً، كان خطابه يدوم نصف ساعة، ويتمادى في عقد المقارنات المتشعّبة، فيصف كل ما سمعه أو قرأه عن إنكلترا. والواضح أنه كان يتوقع مني أن أجيب وأردّ له الشكر على كل خطبة يلقيها، ولكن بما أنه كان يلقي خطبة في دبر كلّ أغنية، وفي كلّ مناسبة تسنح له، فقد أصابني ذلك بكلل وسأم بالغين.

فيما بعد، تضمنّت السهرة بعض الرقصات الشرقية التي أدّتها فتيات دمشقيات. ومع كل هذه المصابيح الملوّنة، والموسيقى الغريبة، والنجوم المحدقة بنا، كان الجوُّ رومنسياً للغاية.

حاولتُ التحدّث عن البدو والحياة في الصحارى، ولكن لم يُعر أيّ من الموجودين اهتماماً بالموضوع. كانوا يبدون خوفاً من الصحراء وينظرون إلى البدو نظرة دونيّة، وهاجسهم الوحيد كان مجاراة العادات الأوروبية وتقليدها قدر الإمكان.

* * *

الفصل الثالث
الخطط والاستعدادات لبحوثي

ذات يوم زارني ندرة مشاقة مع شيخ عربي عجوز، هو محمود البسّام[1]، عرض عليّ مرافقتي خلال رحلتي، كما فعل سابقاً مع السيدة المستكشفة، مِس غرترود بِل[2] Gertrude Bell، وقد بدا عليه بأنه جدير تماماً بالثقة. لقد عاش فيما مضى حياته كلّها بين البدو، تاجراً للجمال، وهكذا فقد جمع ثروة كبيرة استطاع من خلالها بناء منزل لنفسه في الحيّ الأوروبي بالصّالحيّة[3].

لقد استغربت أنّ ابن الصحراء الذي اعتاد العيش بحريّة وانطلاق، وألف الحياة في الخيم والنوم ملتحفاً السماء، أصبح الآن يحب العيش بين الجدران الصّلبة والنوم على سرير أوروبي. وبخصوص هذا السّرير كان فخوراً جداً بامتلاكه، أكثر بكثير من امتلاكه منزله الكبير المتين. طلب إلي القدوم لرؤيته في اليوم التالي، فانتابني شعور بالحشرية لرؤية بيته. لقد رتبنا بأن يأتي برفقتي إلى عَدرا ومن ثم إلى تَدمُر، حيث ينبغي أن نقابل قبيلة «الرّوَلة»

(1) آل البسّام من الأسر المعروفة في إقليم القصيم، وهم من العقيلات الذين يعنون بتجارة الجمال ما بين الجزيرة وبرّ الشام، وسائر صنوف التجارات الأخرى من حبوب وأقمشة وغيرها. وما برحت علاقاتهم قائمة بالدمشقيين إلى يومنا الحاضر، وما زالوا ينتابون دمشق ويميلون إليها ميلاً عظيماً ويتزوجون منها. ولقد عرفنا من العقيلات في أيامنا آل الرّواف الكرام. انظر حول آل البسّام كتاب الرّحالة التشيكي ألويز موزيل: في الصّحراء العربيّة، ص 219.

(2) غرترود لوثايان بِل Gertrude Lowthian Bell رحّالة وسياسيّة وعميلة استخبارات بريطانيّة مشهورة (1868–1926 م)، قامت برحلة شهيرة عام 1904 من القدس إلى أنطاكية، دوّنت أخبارها في كتابها «العامر والغامر» *The Desert and the Sown* (سننشره في سلسلتنا هذه)، وعيّنتها الحكومة البريطانيّة في العراق إبّان الحرب العالميّة الأولى فكانت مهندسة سياسته ولُقّبت بـ «السّت خاتون». وبقيت في العراق بأيّام الملك فيصل الأول كما أسهمت إلى جانب لورنس العرب بإنشاء المملكة الهاشميّة في شرقي الأردن. توفيت منتحرة في بغداد ودُفنت بها. من كتبها أيضاً: «من مُراد إلى مُراد» و«ألف بيعة وبيعة».

(3) أي في المنطقة التي عُرفت فيما بعد بحيّ عرنوس والطلياني، صارت في مطلع عهد الانتداب الفرنسي (1920–1945) بمثابة حيّ للفرنج.

الذين كانوا ينزلون بتلك النواحي[1].

وبما أن محمود البسّام كان على معرفة بشيخ القبيلة[2]، فقد سهّل ذلك مقابلتهم. وقد كنت مسرورة بأن محموداً كان رجلاً عجوزاً، لأن كبار السن يلقون احتراماً كبيراً بين البدو، لذا فإنّ وجوده معي كدليل وصديق، يجعله قادراً على تعريفي بأيّة قبيلة نصادفها.

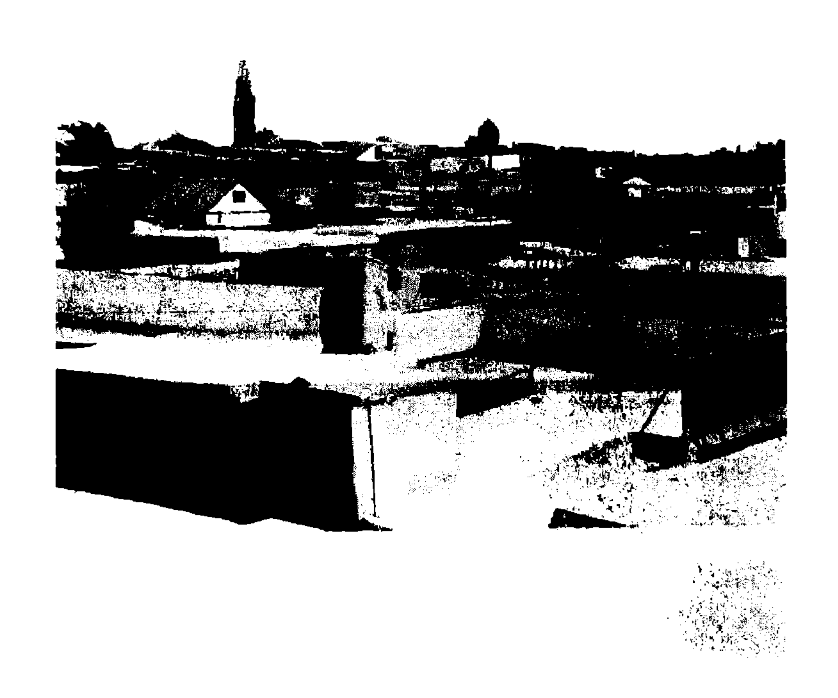
كانت فكرتي الانضمام إلى قبيلة «الرّوَلة» في تَدمُر، ومصادقة شيخها، لأنها كانت من أعظم وأغنى القبائل في جميع أنحاء جزيرة العرب، وهي تنتسب إلى قبيلة «عْنِزَة» الكبيرة. وما إن أصبح من أصدقاء الشيخ، فأنا أعتزم التنقّل معه داخل صحارى البرّ الداخلي، وحالما نصل إلى الجنوب أنوي حثَّه على عبور «الرّبع الخالي» برفقتي، وقد كان تنفيذ هذه المهمة معقولاً فقط برفقة هذه العشيرة العظيمة، بجميع قطعانهم من الإبل والغنم[3]. خلال رحلتي مع الشيخ، عزمت على أن أحاول قصارى جهدي لإطلاق مخيلته وإيقاظ حماسته لاستكشاف «الرّبع الخالي». وقد قمت بحساباتي واستنجتُ بأنه يَلزَمُنا ثمانية أشهر تقريباً للوصول إلى الجنوب، وذلك سيكون توقيتاً ممتازاً للانطلاق إى قلب الصّحراء لأن الطقس سيكون في بداية الرّبيع، بحيث أنّ الجمال تستطيع السفر لمدة ثلاثة أسابيع من دون مياه، وهذا في حدّ ذاته شيئ مهم بطبيعة الحال.

---

(1) الصحيح أن المقصود فرقة الأيدا الشماليين من عشيرة الولد علي من ضنا مسلم من عنزة. وعلى أي حال فالرّولة لا ينزلون في تدمُر (وإن كانت تستجير بهم)، بل تمتدّ منازلهم من الصفا إلى وادي السّرحان وصحراء النّفود والجوف، وإن كانت لشيوخهم أملاك في عدرا والقريتين والباردة والبصيرة.

(2) تستعمل المؤلفة بالغلط عبارة «السّلطان» بمعنى شيخ القبيلة، وذلك من خلال اسم الشيخ سلطان الطيّار، الذي ظنت أن لقبه «السّلطان» لا اسمه.

(3) هذه العبارة تدلّ على جهل المؤلفة بشؤون البادية، فالمسافات الشاسعة والصحارى الجرداء القاحلة لا تقدر عليها سوى الهجن الأصيلة، دون الخيل أو الغنم.



مدينة دمشق



خلال تجوالنا الطويل من المفترض بي أن أجمع معلومات وأن أتسلّح بالخبرة الكافية لكي أقوم برحلتي مع قافلتي بمفردنا، في حال لم أستطع إقناع الشيخ بمرافقتي. عدم التزامي بوقت محدَّد هناك كان لمصلحتي وجعلني غير مجبرة على الاستعجال، لذا كان بإمكاني دراسة واكتشاف الأشياء المهمة لي. كانت خطة غريبة نوعاً ما البدء من أقصى الشمال للوصول إلى الصحراء الجنوبية، ولكن الكثيرين حاولوا دخولها من الجنوب، أو عبر شاطئ البحر الأحمر، وباءت محاولاتهم جميعاً بالفشل مع الأسف، خصوصاً في بسبب التعصّب الذي تتّسم به القبائل الجنوبية.

لم أنس الحادث المروّع الذي وقع للسيد ج. و. بُري G. W. Bury سنة 1909، الذي رغم تعيينه كشيخ عربي، اضطرّ إلى الهرب للنّجاة بنفسه خلال رحلته إلى جنوبي جزيرة العرب، بعد أن تعرّض للخيانة ونَهب كل ما معه، وكاد أن يُقتل[1]. ومن الآخرين غيره: وِلستِد Wellsted في عام 1836، فون ڤريدِه von Wrede سنة 1843، جوزيف هَليڤي Joseph Halévy سنة 1870، وليو هيرش Leo Hirsch سنة 1888[2]. وكل ما استطاع تحقيقه هؤلاء هو اختراق الصحراء إلى حدّ الخمسين أو المئة ميل من أطراف الصحراء، وحتى هذا كان يعرّضهم لخطر جسيم وبحث دائم عن النّجاة. وكذلك فمن المشكوك به كثيراً أن يكون هناك أيّ رجال من العرب قد عبروا تلك الصّحراء على الإطلاق. وقد تحدّثت بعض الإشاعات الغامضة عن وجود طريق خاص بالقوافل كان قديماً يصل صحراء حضرَموت الوسطى بالرياض، ولكن هذه مجرّد إشاعات غير مؤكّدة.

حتى العرب أنفسهم بدوا وكأنهم لا يعرفون شيئاً عن هذه الصحراء. من المفترض أن تكون مساحتها حوالي 600،000 ميل مربّع، ما يعني مسافة 850 ميل من الغرب إلى الشرق، ومسافة 650 ميل من الشمال إلى الجنوب. إذن فبمعدّل مسيرة 50 ميل يومياً، لا يلزم لاجتيازها أكثر من حوالي واحد وعشرين يوماً. ولكن بما أنّه كان من غير المؤكّد على الإطلاق وجود أية ينابيع على الطريق يمكن الحصول منها على الماء، فإنّ هذا يبقى مجرّد

(1) ضمن خطتنا القريبة للنشر في سلسلتنا هذه سيكون كتاب وايمان بُري: *Arabia Infelix* المنشور في لندن عام 1915.

(2) حول هؤلاء الرحّالين والمكتشفين راجع كتابنا الأول في هذه السلسلة: «ارتياد جزيرة العرب»، للبريطاني داڤيد جورج هوغارث.

تقدير افتراضي. مع ذلك، في الصحراء الليبية التي تُعتبر من أقلّ المناطق شحّاً بالمطر في العالم، كانت هناك مؤونة وافرة من المياه الجوفيّة العميقة، فبناءً على ذلك، علامَ لا آمل بالعثور على مثل ذلك في صحراء جزيرة العرب؟

غالباً ما أُسأل عمّا أتوقع العثور عليه ممّا يثير الاهتمام في الصحراء. ربما هو احتمال وجود مدن مدفونة أثرية ذات أطلال ونقوش كتابيّة في غاية الأهمية. أو ربما وجود عرق عربي مجهول لنا. وكذلك قد تكون هناك مكتشفات جديدة وقيّمة على صعيد علم الجيولوجيا (طبقات الأرض) وعلم النبات. من المحتمل أن أكتشف كل هذا، وهناك احتمال آخر أن تبوء بحوثي بالفشل! إن شاء الله! لكنّ مجرّد حقيقة كون قلب هذه الصّحراء غير معروف على الإطلاق لا يقدّم دليلاً حاسماً على أنه لا شيء يمكن العثور عليه فيها.

خلال مكوثي بدمشق، ذهبت مع ندرة مشاقة إلى منزل محمود البسّام. كان بناءً كبيراً جميلاً يتميز بالطابع الأوروبي، وكانت الغرف مفروشة حسب النمط الأوروبي أكثر من النمط العربي. أعجبني السجاد البديع المستخدم في المنزل، ولكنني انزعجت من التقليد الرخيص لكل الأثاث الأوروبي والسَّقط[1]. ولقد أراني بفخر عظيم إناءً فضياً كبيراً كان السيد داوتي[2] Doughty قد أرسله إليه كهدية من لندن.

كان مع محمود البسّام ابنه الصغير، وهو فتى ذكي تبدو عليه مخايل النجابةً له من العمر اثنتا عشرة سنة، يتكلّم اللغة الإنكليزية والفرنسية بطلاقة وراح يسألني بتوق شديد عن الطيران والاختراعات الحديثة الأخرى. لا أظنّ أنّ طموح هذا الفتى هو أن يصبح شيخ إحدى القبائل البدوية[3].

---

(1) تستعمل عبارة فرنسية: bric–à–brac.

(2) تشارلز مونتغيو داوتي Charles Monagu Doughty شيخ رحّالي الإنكليز وأعمقهم معرفة بحياة البدو وطبائعهم، قام برحلة مطولة دامت سنتين (1875–1877 م) إلى مدائن صالح (الحِجر) وتيماء وخيبر، وتجوّل ملياً في الحرّة الواقعة إلى جنوب صحراء النفود، ثم زار حائل في أيام أميرها محمد بن رَشيد. كان من أوائل من أشاروا إلى حجر تيماء الأثري، ورغم أنه لم ينسخ نصه فقد كان تقريره عنه هو من جلب الرحالة الفرنسي شارل أوبير Charles Huber (هوبَر بالألمانية) إلى تيماء وحصل على الحجر وشحنه إلى متحف اللوفْر في باريس. دوّن أخبار رحلاته وخبراته بحياة البداوة كتابه الكبير *Arabia Deserta* في قرابة 1400 صفحة.

(3) لا تفهم المؤلفة نظام المشيخة في عشائر البدو، فإن لم يكن المرء ينتمي إلى أسرة من الشيوخ، لا يمكن له أبداً أن يصير شيخاً، لكنه لو كان فارساً صنديداً يمكن له أن يصبح عقيد حرب القبيلة (شيخ شدادها) وحسب.

اتفقت مع محمود البسّام بأن يشتري لي ثمانية جمال، كافية لأخذي وقافلتي الصّغيرة إلى تَدمُر، حيث نستطيع هناك الحصول من البدو أنفسهم على ذلائل لتحملنا عبر الصحراء. وقرّرت أنا ومحمود البسّام المضيّ على ظهور الخيل، حيث أنه من الضروري تقديم نفسينا إلى الشيخ على هذا النحو، على اعتبار أنّ البدو لا يقدِّرون ويحترمون شيئاً كتقديرهم للخيل والفروسيّة الرّفيعة. وقال محمود البسّام إنه يستطيع الحصول على هذه الجمال مقابل حوالي عشرين جنيهاً للجمل الواحد. وسوف يقدّم لي أيضاً طبّاخه ورجلاً آخر يحترمه ويثق به بمثابة دليل ليرافقنا خلال الرحلة.

ذهبنا بعد الظهر لشراء أقتاب الجمال (الشّدايد) وقِرَب الماء، وقد استغرقنا ذلك وقتاً من الساعة الثانية حتى ما بعد المغيب، إلى أن أقفلت جميع المحلات. في البداية لم يُطرح ذكر الأقتاب أصلاً، بل كانت هناك الترحيبات المبالغ فيها والمجاملات المعتادة على الجانبين، ثمّ جلسنا جميعاً لاحتساء القهوة والنرجيلة. بد ذلك جلسنا لفترة وجيزة في هدوء تام متأملين المارة، إلى أن تطرّق محمود البسّام أخيراً إلى موضوع أقتاب الجمال. وأعتقد أن هذه الأقتاب تمّ شراؤها «تقريباً» وردّها على الأقلّ عشر مرّات. وعلى الأقلّ راح البائع يؤكّد لمحمود البسّام بأنه يحبّه أكثر ممّا يحب أخاه، له ولولا ذلك لما قبل بيعنا ما لزمنا من قِرَب وأقتاب بهذا السعر المغري. كانت محادثة حماسيّة حاول كل منهم فيها إبراز فصاحته، فيما رحت أنا أستمتع بهذا الفاصل الكوميدي غاية الاستمتاع. وبعد أن أصاب كلاً منهما بعض التعب، جلسنا مجدداً بغاية الانسجام مجدداً، لنشرب فنجاناً آخر من القهوة وندخّن نرجيلة جديدة، لتبدأ المناقشات من جديد.

دكان دمشقي

من حين إلى آخر كان أحد أصدقاء البائع يدخل، إلى أن أصبحت الجلسة اجتماعاً للطرابيش واللّحى الرّمادية. وأخيراً سُوّيت لمسائل، وحصلنا على أقتاب الجمال الثمانية وقِرَب الماء السّت، وافترقنا على هذا النحو وكلٌّ راضٍ بما نال.

في اليوم التالي، ذهبنا لشراء الخيم، فاشترينا خيمة حسنة وكبيرة لي، بستة جنيهات فقط، وخيمتين أخريين أصغر للرجال بجنيهين الواحدة. أدهشتني كثيراً هذه الأسعار المنخفضة، إذ أن الخيم كانت قوية وخفيفة ومريحة بشكل كافٍ. كما جلبنا أيضاً بعض الحُصر، وأواني الطبخ وبعض مستلزمات التخييم. لكني لم أحضر سريراً يُطوى للنوم، إذ أنني أُفضّل النوم على حصيرة. بالإضافة إلى شراء كمية كبيرة من المعلبات، والأكل كالأرز، والطحين، والسكّر والقهوة.

سألت محموداً البسّام عن الهدايا المناسبة التي علي شراؤها لتقديمها للبدو. فنصحني بشراء بعض الألبسة والعباءات الجيّدة، وبعض البنادق، وقبل كلّ شيء بعض القهوة، إذ أنّ هذه هي الهديّة الأمثل لدى البدو أكثر من اي شيء آخر. أمّا بالنسبة لنسائهم فقد اشتريت لهن بعض الأوشحة والأقمشة الحريرية، والمجوهرات المختلفة الأشكال والأنواع.

استغرقنا شراء كل هذه الحاجيات يومين كاملين. كان علينا شرب القهوة وتدخين النرجيلة كلّما كنا نشتري شيئاً، وأن نصغي مجدداً للنقاشات المنمّقة ما بين البائع ومحمود البسّام.

اضطر محمود البسّام بعد ذلك إلى مغادرة دمشق لشراء الجمال، وقال إنّ ذلك سيستغرق منه حوالي أسبوعين. الواقع أنني أصدّق بأنه إن كان يلزم لشراء أشياء صغيرة مثل قِرَب الماء فترة العصر بأكملها، فإنّ شيئاً كبيراً حيّاً كالجمل يلزم لشرائه حتماً يومان أو ثلاثة. لذا فقد كان عليّ أن أنتظر بصبر ريثما يعود. كنت أرغب الذهاب برفقته وانتقاء وشراء ما يحلو لي، ولكنه قال لي بأنّ البدو سيرفعون الأسعار عشرة أضعاف عندما يرونني أقوم بشراء الجمال. وبما أنه مصيب على الغالب، لم يكن في وسعي إلا الانتظار.

في هذه الأثناء، قمت بإيداع حاجياتي في منزل ندرة مشاقة، حيث لا تتسبّب بإثارة الشكوك فيما لو جلبتها معي إلى حيث أسكن. كان هدفي الأساسي ألا أدع أحداً يعرف

متى سأبدأ برحلتي وإلى أين سأتوجّه. ولو سمع الوالي[1] Vali برحلتي المُزمعة لكان حتماً عرض عليّ أو ألزمني باصطحاب مرافقة من عنده، أو لكان ببساطة حظر علي المشروع برمّته. لذا فقد خططنا بأنه يجب ألا أنطلق بقافلتي من دمشق، بل ينبغي إرسال جميع الحاجيات إلى عَدرا، وهي قرية صغيرة على سيف الصحراء، تبعد مسيرة خمس ساعات عن دمشق، لا يقطنها سوى العرب.

ثمّة صديق لندرة مشاقة، هو المسيو داود الذي يتاجر مع البدو، يمتلك في عَدرا مكاناً وقد وضعه تحت تصرفي بالكامل. لذا فقد أرسلنا إليه إلى عَدرا كل شيء ليحفظه لي، وكان على محمود البسّام أن يأخذ الجمال إلى هناك أيضاً. فعندما يغدو كلّ شيء جاهزاً، سوف أغادر دمشق وحدي، وأخبر الناس بأنني ذاهبة في «نزهة قصيرة»، ولكنني في الحقيقة سأكون ذاهبة للانضمام إلى قافلتي في عَدرا لبدء رحلتي.

تعرّفت عن طريق ندرة مشاقة بالدكتور خليل[2]، وهو رجل سوري تلقى تعليمه في إحدى الجامعات الأميركية، فعرض عليّ مرافقتي خلال رحلتي بصفة ترجمان dragoman. وبما أنه رجل متعلّم ذو خبرة وذكاء حاد وقد عاش بين البدو لمدة طويلة، فقد خيّل لي أنني لن أظفر بخير منه لهذا الغرض. كما أن قنصلاً أوروبياً قال لي بأنه السوري الوحيد في دمشق الذي يستحق اتخاذه كصديق. وما أعجبني فيه حسّ المسؤولية الكبير الذي يتمتع به ولباقته وخبرته بالناس، فذهبت لمقابلة عائلته وأعجبت بوقارهم وشهامتهم. وعلى ذلك اتفقتُ مع الدكتور خليل بأن يكون بمثابة ترجماني.

---

(1) هذه العبارة بالذات تؤكد أن رحلة المؤلفة قد جرت في أواخر العهد العثماني (1914) وليس في عام 1925 (إبّان الانتداب الفرنسي) كما افترض بعض الباحثين، بدلالة وجود منصب الوالي المذكور الشائع في أيّام الحكم العثماني، الذي انتهى في أكتوبر من عام 1918 بنهاية الحرب العالمية الأولى. كذلك لا يبدو على دمشق وجود حالة حرب أو مجاعة (إبّان السّفر برلك 1916–1918)، بل المؤكد أن الرحلة كانت في عام 1914 تحديداً.
أيضاً في الرسم الذي يمثل موكب الحجّ، رسمت المؤلفة 3 رايات عثمانية تحمل الهلال والنجم (ay–yıldız) وجندياً يلبس القلبق التركي التقليدي في مقدمة الصّورة. فهذا دليل آخر على كون أحداث الرحلة قد جرت بأواخر العهد العثماني وقبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى.

(2) مع الأسف لا تذكر لنا المؤلفة كنية الرجل، مما يضعه في خانة مبهمة، والمعلومة الوحيدة التي تذكرها عنه هي أنه طبيب أسنان درس في إحدى الجامعات الأميركيّة، ولعلها في ظني تكون الجامعة الأميركية في بيروت.

الشيخ محمود البسّام

رجال عرب على الطريق إلى جبل الشيخ

فاجأتني هذه المزيّة بحصولي على شخص إلى جانبي على علم بالعادات الأوروبية ويستطيع رؤية الأمور من منظوري، رغم أنه لن يؤدّي بشكل من الأشكال إلى تبديد شعوري بوجودي بين قوم من العرب دون سواهم، على اعتباره كان هو الآخر عربياً محضاً بكل معنى الكلمة. إنما بما أنه رجل مثقف، فباستطاعته شرح بعض الأحوال والعادات بطريقة أكثر حذقاً من شخص أقلّ ثقافة منه. إلاّ أن نقطة وحيدة سببت لي بعض التردّد: كان الدكتور خليل طبيب أسنان، وكان على وشك ترك ذلك لمرافقتي، وفوق ذلك فالسّوريون لهم طبيعة المرتزقة، فكيف أكون قادرة على التعويض له كترجمان على ما سيخسره بالقدوم معي؟ ومع ذلك، فليس من المفترض أن أقلق حيال هذا الشأن، فهو يدرك صالحه.

حاولت أيضاً ترتيب الأمور مع البنك، ولكن المسألة كانت صعبة، لذا فقد أخذت معي من المال كلّ ما أستطيع حمله. واتفقنا على رمز سرّي، يستطيع رسول من خلاله إحضار المال لي في حال الضرورة.

وبما أنّ كل شيء تمّ إعداده، ولم يبقَ لي سوى انتظار محمود البسّام ليشتري الجمال، فلقد تعيّن عليّ الالتزام بالمثل الإيطالي القائل[1]: «الصّبر فضيلة طيّبة».

* * *

(1) بالإيطالية: "*La pazienza é una bella virtù*". وثمّة مثل إيطالي شائع آخر بهذا الشأن يقول: *La pazienza é la virtù dei forti*، أي: الصبر شيمة الأقوياء.

الفصل الرابع
مواكب رمضان

الواقع أنه لم يكن لديّ مانع كثيراً بالبقاء لمدة أسبوعين زيادة في مدينة دمشق، حيث كان شهر رمضان قد بدأ للتوّ[1]، وكانت دمشق تعجُّ بالحجّاج وبحياة الشرق الغريبة. بدا كل شيء وكأنه فصل آخر من رواية ألف ليلة وليلة، كما وكان فندقي العربي الصغير، الذي كنت أحتسي القهوة فيه من وقت إلى آخر، مكتظاً بالحجّاج العازمين على التوجّه إلى مكّة. فكنتُ أمتّع عينيّ بمظهرهم ولباسهم الرائع، وكل تلك الألوان المختلفة كالأخضر والبنفسجي والأصفر.

كان عليهم الصّوم طوال النهار، ولكن حالما تغيب الشمس يبدأ الرجال بقرع الطبول الكبيرة حول المدينة، معلنين انتهاء وقت الصّوم، وبأنّه صار وقت الوليمة الكبيرة. وهذه الوليمة الكبيرة التي تبدأ عقب الغروب، تدوم طوال الليل. وتُفرد في الشارع طاولات منخفضة قرب الجدران، تغمرها الأطباق المتعدّدة والمختلفة. كل طاولة مزيّنة بفانوس كبير في الوسط مع الزنبق ومسك الرّوم[2]. ويُباع مسك الرّوم بباقات كبيرة في كلّ مكان، والجوّ كلّه معطّر بالرائحة الزكية والقوية. يُطبخ الطعام في الخارج في فرن قرب الطاولات، ويجلس العرب على كراسٍ واطئة، يغنّون، ويأكلون ويدخنون نرجيلاتهم. وأطبقاهم المفضلة قطع الحلوى الصغيرة والكعك من جميع الأنواع. لم أُشاهد في حياتي رجالاً يلتهمون هذا القدر من الحلوى كما يفعل هؤلاء العرب، فهذه الحلويات شديدة الحلاوة إلى حدّ لا يناسب ذوقنا الأوروبي، وطافحة بالسّمن.

---

(1) ها هنا تناقض في نصّ المؤلفة، بحاجة إلى استقصاء: فهي تذكر في مطلع الفصل الخامس أن رحلتها من دمشق إلى بادية تدمر كانت بتاريخ 5 يونيو، وهنا تقول إنها قبلها بأسبوعين ونيّف شهدت بداية شهر رمضان. غير أن الواقع أن مطلع شهر رمضان في عام 1914 كان في يوم 23 يوليو تحديداً.. فما بال هذا التضارب؟ أيعقل أن تكون المؤلفة تبني على الخيال؟ ثمّة من يشكك برحلتها، وأنها لم تتجاوز بادية الشام وتدمر بأقصى حدّ.

(2) نوع من زهر النّرجس، يسمى بدمشق: المَضعَف.

عند عودتي من نزهتي في وقت متأخر من المساء من دمّر، تمتّعت بشكل كبير بالمرور في الشارع الرئيسي حيث كان الناس يجلسون ويتناولون الإفطار، وأضواء الفوانيس تشعّ كالنجوم عن بعد، وعن قرب تلقي خيالات ساحرة على أولئك البدو في أثوابهم الملونة الفضفاضة.

خلال رمضان، تُضاء جميع المآذن طوال الليل، وبما أن المدينة تحتوي على مئتين وخمسين مئذنة، فهي تشكّل منظراً جميلاً جداً للفرجة عليه من أسطوحي في الليل. كان النوم يبدو شيئاً شبه مستحيل، فقد انتابتني أحلام غريبة طوال الليل جرّاء الغناء وقرع الطبول، وعوضاً عن الاستسلام إلى النوم دخنت النرجيلة وجُلت بناظريّ على كل تلك المآذن المضاءة، التي كانت وكأنها تناديني. ثمّ أحببت رؤيتها مُطفأة عندما بارح آخر نجم شاحب أديم السماء وتلاشت كل الأصوات في المدينة. وكان الناس على وشك النوم في غالبيّة مدّة النهار، إلى أن يوقظهم الطبل من جديد لوليمة الطعام بعد الغروب.

في اليوم التالي، شهدت عرضاً مثيراً للغاية. فأثناء ذهابي إلى المدينة، عند التوقف في السوق الكبير، كان ثمّة موكب عظيم يأتي قدماً. في المقدمة، كان هناك رجلٌ يحمل طبلاً ضخماً، ويتبعه آخر يعزف على نوع من البوق، وكلاهما يجهدان في إصدار أعلى ما يمكنهما من أصوات. وخلفهما يمشي «العقيد»، الرجل الأقوى في الفرقة، الذي ينتقى بعناية. وكان يتأرجح على أكتاف رجلين، ويستند إلى عصاتين جسيمتين. وكان الناس من خلفه يهتفون ويهلّلون ويرمون أسلحتهم وطرابيشهم في الهواء.. ولمّا مرّ بعض الأوروپيين رميت قبعاتهم المصنوعة من القش عن رؤوسهم[1].

ألقى أحدهم الحجارة عليّ في عربتي، فرأيتُ أنّ من الحكمة الخروج منها. ولكنّي كنت مصطرة للمضيّ خلف الموكب، لأنهم لم يتركوا أيّ مجال لاجتيازهم، أمّا التحرّك عكس المسيرة الحاشدة فكان أمراً مستحيلاً. بدا الحشد ككتلة واحدة من الإثارة المتشدّدة. وقد شلّت هذه الكتلة حركة السير في المدينة، وبدت كأفعى عملاقة، وما إن بلغت الشارع الذي يقود إلى تَدمُر، حتى توقفت لبرهة. دنا أحدهم من العقيد وصاح بشيء

(1) كان أهل دمشق قديماً يكرهون الأجانب كرهاً عميقاً، وكانوا إذا صادفوا منهم أحداً تبعوه بالشتائم والحجارة وهم يصيحون: «فرنجي كوكو..». وكذلك ظلّوا يكرهون القبعات (البرانيط) حتى أواسط القرن العشرين.

ما. ثمّ رأيت بعض الرّجال يركضون بحميّة في اتجاه منزل، ويعودون بعد قليل ومعهم رجلَ أوروبي، وهم يضربونه ويركلونه أمامهم. تجمّعوا جميعاً حوله وأظنّ أنهم كانوا ليقطّعوه إرباً لولا تدخّل بعض الجنود لإبعادهم. ثمّ أخذوا الرجل المسكين، الذي أُغمي عليه من شدّة الضرب، وحملوه بعيداً. الوقع أنني انتابني شعور بالرّعب والاشمئزاز عندما رأيت بأُم عيني هذه الهمجية.. لقد كانوا كالوحوش الكاسرة، وشعرتُ لوهلة أنهم سينقضّون عليَّ لتقطيعي أنا. لذا، عندما تحوّلت المسيرة إلى طريق جانبي، نجحت في الهروب والوصول إلى منزلي سالمة. وتساءلتُ ما الذنب أو السّوء الذي اقترفه الرجل المسكين ليستحق كل هذا الهجوم الضاري.



«كان ثمّة موكب عظيم يأتي قدماً»

اكتشفتُ لاحقاً سرّ هذا اللغز. فلقد أخبرني ندرة مشاقة القصّة بأسرها، فبدأت أخاف النّاس من حولي. هذا الرجل الأوروبي الذي عومل بتلك البربرية كان طبيب أسنان يوناني الأصل، وكان له أعداء كُثر بين أهل البلد. وكانوا هدّدوه وأنذروه مراراً بضرورة مغادرة دمشق، ولكنه لم يُبدِ أيّ اكتراث بكل تلك التهديدات. فأثناء المسيرة ذلك اليوم، حيث صادف المرور أمام منزله، تولّى الجميع شعور بالتعصّب، فإذا بأحد أعداء الطبيب يركض إلى العقيد ليقول له بأنه رأى الفرنجي يغازل امرأة من أهل البلد في غرفة المعالجة، وأنه رأى ذلك عبر النافذة المواجهة. أشعلت هذه الكلمات فوراً نار الحقد على الأجانب بين الجمع الحاشد، فهرعوا لإحضاره وربما لقتله. لقد كانت هناك امرأة عربية فعلاً في كرسي معالجة الأسنان، ولكنها ربما كانت مُرسلة من أحد أعدائه للإيقا ع به، وأنا متأكدة بأن ذلك الطبيب لم يغازلها لأنه لا يمكن أن يكون جاهلاً أو غير عابئ بالخطر الذي كان ليصيبه إن فعل، بالإضافة إلى أن قيامه بمثل هذا الشيء مع مرور هذا الموكب الديني بمحاذاة داره كان أمراً غير منطقي. أخبرني ندرة بأن مثل هذه الأمور غالباً ما تحدث في دمشق، وبأنّ الناس يبادرون إلى الانتقام من الفرنج بأساليب أكثر إمعاناً وقسوة من ذلك.

أثارت هذه الحادثة الخوف بداخلي، فلقد عرفت بأنهم يتعقّبوني خلسة، وعلمت الآن أنه قد دُفع للست تروسّين لكي تلازمني على الدّوام كما راحت تفعل مؤخراً. كما تأكدت بأن هناك رجلاً يراقبني ويقطن بالقرب من منزلي، ويكتب بياناً بأعمالي وبالأماكن التي أتردّد إليها، فضلاً عن الأوقات التي أخرج وأعود خلالها! ولكنني مع ذلك لم أر هذا الرّجل على الإطلاق! ثمّ إن كل البرقيات التي كنت أستلمها كانت مفضوضة، ممّا يعني أن ساعي التلغراف كان قبل أن يسلّمني برقيتي، كان يريها إلى كلّ من كان يهمّه معرفة محتوياتها. لقد علمت ذلك كلّه، ولكني لم أستطع إدراك الأسباب لمثل هذه الأعمال.

لقد جعلتني العناية الإلهية شاهدة على تلك المسيرة، وما حدث أثناءها لإنذاري. ففي اليوم التالي أحضرت إليّ الستّ تروسّين رسالة لم أستطع معرفة مرسلها لأن خط كتابتها كان مجهولاً بالنسبة لي. وقبل فضِّها سألتها عن الشخص الذي أحضرها، فقالت إنّ الرجل كان أصمّ وأبكم. كانت الرسالة عبارة عن دعوة لي من سيدة وابنتها لزيارتهما في عصر ذلك اليوم، وقد اشتكت السيدة بأنني أعطيت الأفضلية لأصدقائها عند قبولي دعواتهم،

وتذكر بأنها تملك بعض العملات المعدنية الثمينة المتسخرجة من الصّحارى في جزيرة العربية، إضافة إلى بعض نسخ القرآن الكريم القديمة جداً المزوّقة باليد، قد تُثير اهتمامي للفرجة والاقتناء. رجتني للحضور والفرجة عصراً، وذكرت أنها سترسل لي خادمها لكي يصطحبني عند الساعة الخامسة. وأنهت رسالتها بالمجاملات اللطيفة المعتادة.

لا أدري لماذا أثارت تلك الرسالة شكوكي، وربما كان ذلك بسبب السّاعي الأصمّ والأبكم. فأرسلتُ في طلب ندرة مشاقة، وأريته الرسالة دون أن أبدي أيّة ردّة فعل ودون ذكر شكوكي. فقال لي فوراً بأن خط الكتابة لم يكن لامرأة بل لرجل، وانتابه غضب عارمٌ لأنه شعر بأن هناك غدراً يكمن وراء هذه الرسالة. كان من المفترض أن يأتي الرّجل لأخذي في السّاعة الخامسة، ففكّرت: ماذا لو ارتدى ندرة لباسي العربي الفضفاض الذي يخفي كل الملامح ويجعل من المستحيل تمييز معالم المرء.. فضلاً عن اليَشمَق الأسود السّميك الذي يغطي كامل الوجه؟ هكذا يستطيع الذهاب مع الرّجل واكتشاف كاتب الرسالة. فإذا كانت امرأة فعلاً سيتعرّف إليها، وسيبرّر لها سبب تنكّره على أنه من باب المزاح. ولكنه كان يتوقع الأسوأ.

وعلى ذلك، أرسلنا الستّ تروسّين بعض الظهر في مهمّة طارئة في الطرف الآخر من المدينة، وألبستُ في هذه الأثناء ندرة مشاقة زياً يبدو فيه كسيدة سورية. القاعدة تقول بأن الرّجل في لباس المرأة يفضح نفسه بيديه وقدميه الكبيرتين. ولكن الرّجال السوريين لهم أقدام صغيرة جداً، وهكذا كان حال ندرة، وبما أنّ يديه كانتا مخفيتين بداخل الزيّ الذي يشبه المعطف، فمن الممكن جداً الاعتقاد بأنه امرأة. في الساعة الخامسة تماماً، كان الرجل الأصم والأبكم الغامض يقرع الباب، ففتح له ندرة. لم يمضِ على وجودي وحدي أكثر من ربع ساعة وإذا به يعود من جديد، ينتابه غضب وإثارة شديدان. لكني لم أتمالك نفسي من الضحك لرؤيته يذرع الغرفة أمامي بخطوات كبيرة غاضبة، وقد نسي تماماً أنه ما زال يرتدي زّي امرأة.

بعد أن هدأ قليلاً، جلس ندرة ليسمعني القصة: تبع الرجل إلى الحيّ المجاور، ودلفا إلى الباحة الداخلية ليجد ثلاثة رجال سوريين يعرفهم ندرة جيداً، وقد قاموا لتحيّته. لكنه لم يترك لهم أي وقت للكلام، بل فاجأ كلاً منهم بضربة على الوجه، وقبل أن يستوعبوا ما

حدث، كان قد اختفى من جديد. لم نستطع أبداً معرفة ما كانت مكيدتهم المدبّرة لي، ولكن من المؤكّد أنهم أرادوا أذيتي. أعتقد ندرة أنهم ربما كانوا ينوون إبقائي طوال الليل هناك ليتّهموني فيما بعد بأني امرأة ساقطة، ممّا سيؤدّي إلى طردي من البلد. سألت ندرة لِمَ لَمْ يبقَ هناك ليكشف عن هويته ويستفسر منهم عن المكيدة التي رسموها، فأجابني بأنه لم تسنح له الفرصة، فقد كانوا ثلاثة رجال مقابل واحد، فضلاً عن الخدم في المنزل، وكان بإمكانهم القضاء عليه.

لمّا استبدّ بي السّأم من دمشق عندها، فقد قرّرت الذهاب في رحلة صغيرة على ظهر الحصان إلى جبل حرمون (جبل الشيخ) الذي يبعد حوالي مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام، وفي حال أحببتُ المنطقة أفكّر في أن أبقى في إحدى القرى الصّغيرة هناك ليوم أو يومين. كان من الضروري إيجاد شخص عربي لمرافقتي، وبعد بضعة أيام رحلنا أنا وعمر خادم الدكتور خليل. لم نأخذ معنا سوى حصانينا والقليل من الزّاد والماء في خُرجينا. ادّعى عمر بأنه يعرف الطريق جيداً، ولذا فقد وثقت به كدليل. خلال النهار كان قادراً على معرفة الطريق جيداً، ولكن ما إن خَيَّم الليل حتى ضاع تماماً، ولكنه لم يعترف بذلك واستمر في طمأنتي بأننا سنصل خلال عشر دقائق إلى قرية عرنة[1] Hamar حيث سنبيت الليلة. كنت متأكدة بأنه أضاع الطريق، ولمّا امتدّت دقائقه لساعات، فقد قطعتُ كل الأمل ببلوغ أيّة قرية في تلك الليلة. كنا نسير صعوداً طوال الوقت، فوق أحجار وصور ضخمة، ومن خلال الرّيح الباردة التي هبّت علينا أدركتُ بأننا قد بلغنا ارتفاعاً كبيراً.

(1) هذا ما نتخيّل أنه المقصود باسم Hamar الوارد في الأصل المطبوع نقلاً عن خط المؤلفة، فاسم عرنة باللاتينيّة Arnah قد يلتبس بالعبارة المذكورة. وعلى أيّ حال فأشهر قرى جبل الشيخ هي حينة وعرنة وبيت جَنّ.



الموضع الذي قتل فيه قابين آخاه هابيل



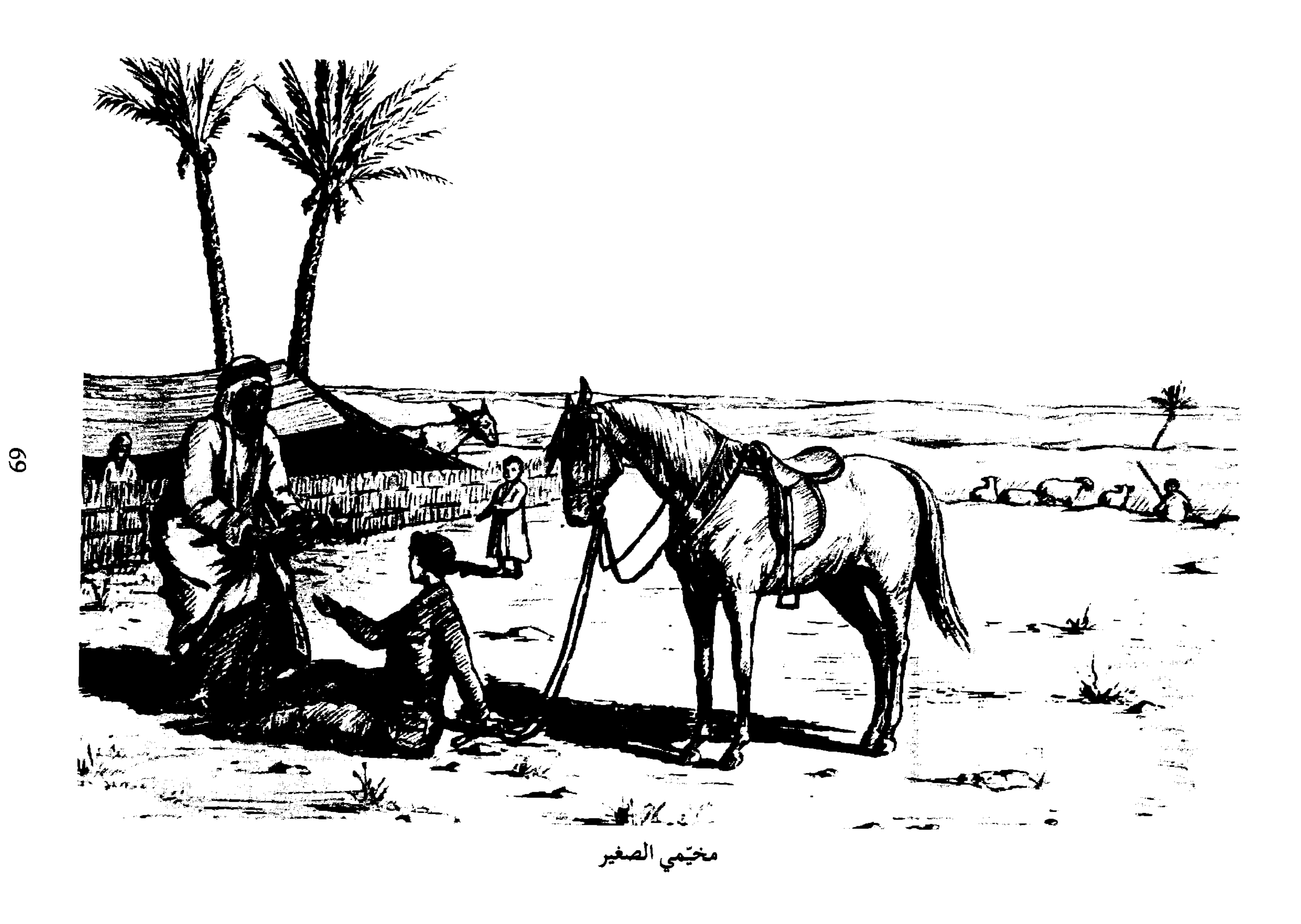
كهوف في نواحي جبل الشيخ

لم أشعر بالمتعة أبداً في التجوال خلال العتمة لساعات وساعات، لذا ترجّلت وأعطيت الحصان لعمر، وطلبتُ منه البحث عن مكان له وللحصانين، ولففتُ نفسي بمعطفي وتأهبت لنوم عميق. لكن عمراً ارتاع للغاية لفكرة قضائنا الليلة في العراء، وتوسلّ إلي محاولاً إقناعي بالاستمرار حتى نجد قرية ما. وقال بأنني إن بقيت هنا سوف يقتلني العرب، أو تفترسني الضباع. في بادئ الأمر ضحكتُ من مخاوفه، ولكن عندما راح يصرّ على المضيّ، إلا أني بعد ذلك توجّستُ شراً وطلبت منه العودة إلى دمشق. لكنه في الواقع اختفى وسرعان ما استغرقتُ في نوم عميق.

بعد حوالي ساعتين من الراحة، استيقظت لأجد حوالي عشرة من العرب ذوي السّحنات المخيفة يجلسون على مقربة منّي، يحدّقون بي! فتساءلتُ عمّا إذا كانوا قطّاعي الطرق المرعبين الذين تحدّث عنهم عمر. فإذا بأحدهم يدنو منّي، فسألته ما إذا كان رأى عمر وحصاني، وعن سبب تحديقهم بي. فأجابني بأنهم عندما رأوا شيئاً ملتحفاً مجهولاً ظنوا بأني أحد اللصوص. تبيّن أنهم لم يكونوا أشراراً بل مجرّد عرب فقراء كانوا في طريقهم إلى حمص[1] للالتحاق بعشيرتهم.

بعد نصف ساعة ظهر عمر، تعلو وجهه علامات السعادة والدهشة لرؤيتي على قيد الحياة، لم تفترسني الضباع ولا قتلني قطّاع الطرق! لكنني شعرت بخيبة من جرّاء هذا الدّليل الجديد على جُبن عمر، فقمت بإرساله إلى دمشق وتابعت سيري وحيدة.

(1) ترد التسمية في النص المطبوع مراراً: Houss، ومن الواضح أنه تصحيف عن اسم Homs.



مخيّمي الصغير

كلّ المنطقة التي اجتزت بها كانت جرداء ممحلة، غير أنّ الشمس كستها بلون ونور بدت معهما وكأنها شيئ خيالي. لم يكن هناك أي نبات، لا شيء غير القحط والجفاف في كلّ مكان، رغم ذلك كان كلّ شيء يشعّ بالدفء والضوء، فأزال عني الشعور بالعزلة في هذه المنطقة الجرداء.

بنواحي الغروب، بلغت بشكل غير متوقع واحةً صغيرة، اعتقدت لوهلة بأنها سراب ظهر فجأة في تلك الأرض القاحلة. قرّرتُ أن أتقيّل هناك. تركت حصاني يرعى العشب على هواه، وسرعان ما أعددتُ مخيمي الصغير، وكما وصف ستيڤنسُن:

سريرٌ مُعدّ، وغرفة على خير حال،

أنارت النجوم في حينها تلك الليلة،

كان الهواء هادئاً، والمياه تجري،

لا حاجة لخدم أو رجال،

عندما تقيّلنا، أنا وحصاني،

في فندق ربنا العظيم.

* * *

الفصل الخامس
في قافلتي إلى عدرا وتَدمُر

في يوم 4 يونيو[1] وصلني خبر من محمود البسّام أن كلّ شيء كان جاهزاً، وأنه هو وقافلتي كانا بانتظاري في عدرا. استدعيتُ الدكتور خليلاً واتفقنا أن نلتقي خارج دمشق عند الثامنة من الصباح التالي. قرّرت بأن أرسل بعض الأمتعة الصغيرة في عربة، وأخبرت الستّ تروسّين أنني سأُقيم عند بعض الأصدقاء لأسبوع أو اثنين، إذ لم أرغب بأن تعرف حتى هي وجهتي الحقيقية.

ذلك الصباح، كنت أقود عربتي وقلبي مليء بالأمل والشوق، للشروع في التعرّف إلى حياة البدو الحرّة. كانت طريق عدرا على يمين تَدمُر، ويفضي إلى قرى عربية صغيرة جميلة، كان بانتظاري في إحداها الدكتور خليل. كانت جولتي ممتعة للغاية، على اعتبار أنني للمرّة الأولى ألقى مجدداً أرضاً منبسطة ليّنة. عبرنا نهراً صغيراً تملؤه السلاحف الضخمة. بعد مسيرة دامت خمس ساعات بانت عدرا في الأفق وحولها بضعة مئات من بيوت الشعر. بدت القرية بحدّ ذاتها رائعة المنظر: دُورها البيضاء الواطئة، التي تحيق بها أشجار النخيل المستدقّة، والمسجد العتيق بمئذنته الرّشيقة، وقطيع الجمال التي ترعى على هواها. كان منزل المسيو داود يقع خارج الضيعة، بالقرب من خيام البدو. كان قد رآنا هو ومحمود البسّام على مبعدة، فأتيا للقائنا. أخبرنا محمود البسّام بأن قبائل «الفدعان»[2]، و«السّبعة» و«بني خالد» كانت في الوقت الحاضر تنزل ما بين حمص والفُرات، وأن قبيلة «الرّوَلة» كانت قرب تَدمُر[3].

(1) هذه المرة الوحيدة التي تذكر فيها المؤلفة تاريخاً محدداً في كتابها، لكن دون ذكر السنة. وهذا مما لا شك فيه يمثل نقطة ضعف فادحة في لكتاب.

(2) يرد الاسم في الكتاب بصورة مصحفة عن خط المؤلفة: Têdem، لكن من الواضح أن المقصود الفدعان، لأنها إلى جانب السّبعة وبني خالد أشهر عشائر بادية حمص، التي تقع تدمر فيها.

(3) من المعروف في تاريخ عشيرة الرّولة أن بلدتي تدمر والقريتين في بادية حمص كانتا في حماية العشيرة، وتدفعان لها الخوّة.

قرّرنا البقاء في عدرا بضعة أيام، ثمّ الانطلاق إلى حمص. أمّا بيوت الشعر المتناثرة حول عدرا فكانت تابعة لعشيرتي «العقيدات» و«الشرارات». واقترح المسيو داود بأن نذهب لزيارتهم في اليوم التالي لوصولنا. لقد رغبتُ كثيراً في أن أضرب خيمتي بينهم، ولكنه أصرّ على قبولي لضيافته ومكوثي في منزله. ولذا فكان عليّ المكوث مرّة أخرى تحت سقف منزل، لكنني تمنّيت أن تكون هذه المرّة الأخيرة.

في اليوم التالي، أرسلنا الدكتور خليل لرؤية الشيخ عمّار، شيخ قبيلة «العقيدات» لإبلاغه بأمر زيارتنا له. فعاد برسالة ترحيب. فعلى ذلك، قمنا في عصر ذلك اليوم أنا وترجماني ومحمود البسّام ومسيو داود بالتوجّه إلى مضارب العقيدات. أرسلنا ترجماني أولاً، وعند وصولنا، كان الشيخ ورجاله مجتمعين أمام بيت الشعر الكبير في انتظارنا، وأعانني الشيخ على النزول من سرجي. دخلنا جميعنا بيت الشعر وجلسنا، وبعد تبادل المجاملات المعتادة شربنا بعض القهوة.



قرية Hamar



خيمتي وقافلتي في تدمُر

لا يزال الشيخ عمّار شاباً في مقتبل العمر يُقارب عمره الثامنة والعشرين. لم يبدُ رجلاً قوياً جداً، لكنه راح يتباهى بقوّة عبيده، وذكر بأن كل واحدٍ منهم بقوةِ ثلاثين رجلاً مسلّحاً! كانوا رجالاً حسني المنظر، فارعي الطول، يتمتعون بنظرة صقر، وبأسنان بيضاء ومظهر قوي وشجاع. يرتدون أثواباً بيضاء وفي أحزمتهم البنفسجيّة يحملون سيوفاً مفضّضة كبيرة. أحدهم كان عبد عمّار المفضّل، أخبرنا عنه القصة التالية: في أحد الأيام، عندما كانت المضارب جميعها خارجة في غزوة، تسلّل فريق من عشيرة أخرى، ونهبوا أربعين جملاً. فإذا بهذا الرجل ينقضّ على المعتدين وحده بسيفه الكبير، ويستردّ كل الجمال. خلال المعركة لم يبادر أبداً إلى إطلاق النار، بل راح يصول في وسط المعمعة يضرب بسيفه، ولم يُصب بأي أذى. والواقع أنه يبدو كخير مثال للرجل، كبقيّة فريقه.

سألتُ إذا كان بمقدوري رؤيتي النساء. وكنّ في خيمة خاصة بهن، منفصلة عنا بستارة ملونة. كنّ جميعاً منهمكات بصنع الصوف للحصر وجمع شعر الجمال لصنع شقق بيوت الشعر. كانت لبعضهن ملامح جميلة، ولكن في الجزء السفلي من الوجه كان مكسواً بالكامل بالوشوم، ويضعن خزامات على شكل حلقات صغيرة في أُنوفهن. سألتهن عمّا إذا

كنت أستطيع أخذ بعض الصور لهن، فلم يمانعن بتاتاً. بل على العكس، قدمن يطلبن مني أخذ المزيد من الصور لهن. وما لم يستطعن فهمه هو: كيف لآلة صغيرة كالكاميرا، تصوير الإنسان بأكمله؟

اهتّم الشيخ عمّار بسماع ما أمكنه عن إنكلترا وحياة الإنكليز. ودعاني للبقاء معهم لبعض الوقت وعرض عليّ خيمة لوحدي، ولكني اعتذرتُ منه قائلة بأن نيتي هي الذهاب إلى حمص. ورغب بإعداد وليمة كبيرة لي، ترافقها السباقات والرقصات، لو رضيت بالبقاء ولو لبضعة أيام. شكرته على حسن ضيافته ووعدته بزيارته إن قدرت عند عودتي من رحلتي.

بعد زيارتنا «للعقيدات»، ذهبنا لرؤية شيخ قبيلة «الشرارات». بالمقارنة مع «العقيدات» بدت القبيلة الأخرى مجرّد فريق من البدو الرّحّل: كانت خيم العقيدات جميعها كبيرة وسوداء، بينما كانت خيم «الشرارات» صغيرة بيضاء وملوّنة. بدت خيمة الشيخ مريحة أكثر من الخيم الباقية، ففيها مُدّت الحصائر ولها في أحد جوانبها شقّة مستورة بستار جميل من الخوص.

استقبلنا الشيخ العجوز ذو اللحية البيضاء بكثير من البشر، وشربنا معه القهوة. وبينما كنّا جالسين على هذا النّحو، احتشد حولنا البدو رجالاً ونساءً، يرمقوننا بفضول، وكانوا جميعاً تبدو عليهم ملامح الرثاثة والفقر، لكنهم جدّ سعداء. دَنت مني النساء البدويات يلمسن ثوبي ويتفحّصن تفصيلته ونوعية قماشه. ولم أكن أرتدي لباسي العربي عمداً، بل ارتديتُ الثياب الأوروبية، بما أنني بتّ أعلم بأن البدو سيحترمونني كامرأة أوروبية أكثر من امرأة متنكرة بزيّ عربي. ولكن لكي أحمي نفسي من أشعة الشمس ارتديت عباءتي البيضاء والحجاب. وقرّرت، بما أنني أنوي قضاء بعض الوقت برفقة العرب، ارتداء لباسهم فهو مريح أكثر بكثير وينسجم إلى حدّ أكبر مع شاعريّة حياة البداوة الحرّة.

أحببت إقامتي القصيرة في عدرا، فمن جهة، كنتُ محظوظة بالإقامة بين أُناس لا يتكلمون كثيراً، كما أنني أحببتُ خصوصاً الأمسيات الماتعة الهادئة على الأسطوح. فُرشت على الأرض الحصائر، وتوزعت عليها المخدّات الكبيرة، منها كبار للاضطجاع، وأخريات للاستناد عليها. وعلى طبق نحاسي كبير قُدّم الطعام في أطباق صغيرة عديدة.

كان الرّجال يجلسون متربّعين حول النار، ولم يكن هناك من ضوء سوى نور القمر والنّار الموقدة. جلس ستة من العرب حولي، بوجوههم السُّمر ولحاهم السّود. جلسنا صامتين لساعات وساعات، نشرب القهوة وندخن النراجيل. ربما يبدأ أحدهم بالغناء، فأستطيع الاستماع والحلم تحت السماء المزينة بالنجوم.

فجأة، من قلب العتمة كان يظهر رجل ويخلع حذاءه بهدوء، ويجلس مع الآخرين حول النار. ثم يتبعه لاحقاً رجل آخر. كانوا يأتون ويذهبون طوال الليل، وقد كان منظرهم رومنسياً وهم يظهرون فجأة على وهج النار. فكان هناك شيخ عربي عجوز، يرتدي عباءة فخمة، وبدوي فقير حافي القدمين، لا يكسو بدنه سوى دثار بالٍ ممزّق. ولكن سواء كان بعضهم شحاذاً والآخر شيخاً، فلقد عرف مسيو داود بشكل لطيف كيف يجعل الجميع يسارعون لخدمته. فأحدهم يحضّر القهوة، والآخر يجهّز النرجيلة، وكل واحدٍ كان يقوم بواجبه الخاص. وكان عندما يعطيهم سيجارة أو شيئاً لأكله، يرميه لهم لالتقاطه. في البدء رأيت في ذلك سوء تصرّف، وإذلالاً للبدو المعتدّين بأنفسهم، ولكنهم لم يروا في ذلك أيّة مهانة، وكانوا يلتقطون السيجاة بوقار، كما يبدو.

كُنّا دائماً نطيل السهر، حتى الساعة الواحدة أو الثانية فجراً. وعند الساعة الثانية فجراً كانت القافلة تنطلق محمّلة الحبوب إلى دمشق، وقد كنت استمتع دائماً برؤية الجمال العشرين أثناء وسقها بالأحمال، وبمشاهدتها تتوارى عن الأنظار ببطء خلال العتمة.

بعد ذلك أويتُ إلى سريري الصغير الذي على الأسطوح، لأنني كنت قد عفتُ النوم في الدّور. فقد كانت الغرفة لا تُطاق لكثرة ما بها من متاع، فانسللتُ بهدوء إلى الخارج لأتدبّر النوم هناك. كان الهواء جافاً بشكل رائع خلال الليل، فلم يغمرني النّدى كما كان يحصل لي بدمشق. فكان من المبهر الاستيقاظ في الفجر المتوشّح بالظلمة، ورؤية انكفاء النجم الشاحب الأخير في السّماء الخالية من الغيوم، ثم استطلاع الشمس وهي تُشرق بلون ليلكي من خلف الجبال، متألقة على الدنيا من جديد. وبعدها لم أتمكن من الخلود إلى النوم مجدداً، فلقد كان كياني بأجمعه قد تفجّر بحياة جديدة وألَق جديد. قمتُ بالاستحمام في مياه لم تكن نظيفة تماماً، على بعد نصف ساعة من هنا. لكن مع الأسف، كانت المياه التي نضطر إلى شربها هي هذه المياه ذاتها، حيث لم يكن هناك سواها في

عَدرا. كنا نقوم بترشيحها، لكنني حرصتُ دوماً على ألا شرب الكثير منها.

بعد حمّامي، عدتُ لتناول فطور بسيط، ثمّ أتى فارسي لاصطحابي. كان الشيخ عمّار شيخ العقيدات هو من يرافقني خلال نزهاتي على الخيل. وقد كان خيّالاً ممتازاً وذا صُحبة ممتعة، ومع ذلك كنت لأفضّل التجوّل وحدي. وذات يوم ضايقني بعض الشيء، عندما أردت التنزه في الصحراء والعودة في وقت الغروب، حيثً أنّ المنطقة تتوشّح بلون رائع للغاية. لكنه أراد المُضي على طريق دمشق، ممّا عنى أن الشمس كانت لتبقى متوهجة في أعيننا باستمرار. فقلت له بأنني أبغي الركوب صوب الصّحراء، وهذا ما فعلته. فتبعني لخمس عشرة دقيقة، ومن ثم أوقفني بأن أمسك برسن حصاني. وطلب مني الرجوع فقلت له: «لا!». عندها أخبرني بأنه جائع لأنه صائماً طوال اليوم، وأراني كدليل على ذلك مدى اتساع حزامه. وعندها بالضبط سمعنا صوت المؤذن، معلناً أن وقت الصوم قد انتهى. فقلتُ له أن يرجع لوحده لأني لم أكن جائعة. فأصرّ على أن أعود معه لأنه لم يستطع العودة وتركي بمفردي في الصحراء. تولاّني الغضب منه فلم يتركني أركب على راحتي، بل أبقى لجام حصاني في يده. وفي النهاية بدأ يعبث بلحيته، وراح يمشّطها بيده وهو ينظر إلي مبتسماً بطريقة تعني الترجّي. وأنا أعلم أن البدوي عندما يفعل ذلك فهو يظنّ أنّ عى المرء أن يفعل ببساطة ما يطلبه منه، لكنني تمنّعتُ للغاية ممّا جعله ف النهاية يفهم أنني لستُ مزمعة على التراجع، فتبعني.

خلال الأيام الأخرى، كنا نذهب إلى مضارب عشيرة الحديديّة، التي كانت على بعد حوالي ساعتين من عدرا.

وأحياناً أخرى كنت أمتطي الحصان مع الشيخ لزيارة قبيلة الشرارات. ويبدو أن الشيخ موسى العجوزاً كان فقيرا حقاً، فقد أرسل لي ابنه الذي ارتدى عباءةً قديمة ممزقة، وجعل يريني ما بها من ثقوب ورقاع. لم أفهم مراده في البداية، إذ كنت أظن أن البدو يأنفون من الطلب، لكنه لم يكن يبغي سوى عباءة جديدة، فأعطيته واحدة من الهدايا التي أحضرتها للبدو.



محمود البسّام، ومسيو داود، والشيخ موسى

بيت شعر شيخ قبيلة العقيدات

في اليوم الذي سبق مغادرتنا عدرا، ألقيتُ نظرة إلى قافلتي، فوجدت بأن محموداً البسّام قد أحسن ترتيب كل شيء: بدت الجمال قوية ونشيطة، كما بدا الطاهي والمرشد رجلين جديرين بالثقة وقديرين. كان اسم الطاهي حسن، وكان ما يزال شاباً، له عينان يظهر من خلالهما الوفاء. أمّا الدليل عبد الله فقد كان رجلاً متقدماً في السن، ذا وجه طلق يدلّ على الذكاء. وفضلاً عنهما كان هناك عكّامان فتيّان: راشد ومصطفى، بديا وكأنهما شقيّان شابّان. وقد شاهدتهما ويحمّلان الجمال، أحدها بالخيام والآخر بعدّة التخييم، والآخر بالمؤن والمعلبات، والثالث والرابع بقِرب الماء، والخامس بالهدايا وبأمتعتي الشخصية، والجمال الثلاثة الأخرى بالتبن للخيول. لطالما قيل لي بأن الجمال حيوانات مزاجية، وذوات خلق وعر، لكنني أعجبت بصبرها في نوخها للتحميل وطاعتها التامة في القيام.

أحزنتني حقاً مغادرة عدرا، فلقد كانت إقامتي فيها ممتعة جداً. وقد أراد مسيو داود أن نمكث لوقت أطول ولكننا قررنا المضي برحلتنا في اليوم التالي. في تلك الليلة كان على قافلتنا الانطلاق، بحيث أننا عندما ندركها في الصباح، تكون خيامنا قد نُصبت سلفاً، وكل شيء قد تمّ تجهيزه للحصول على استراحة قصيرة.

بعد وداع ودّي من مسيو داود، غادرنا عدرا في الصباح الباكر، أنا ومحمود البسّام والدكتور خليل. سرنا لمدّة حوالي ست ساعات قبل أن نتوقف. وكانت الأرض الخضراء الليّنة الجميلة قد اختفت، ورحنا الآن نجتاز صحراء سوداء صخريّة، يكسوها حجر الصّوّان. تلاشت آخر ملامح الحياة النباتية، ودخلنا عالماً من الكآبة والجفاف والسكون والموت. بعد استراحة دامت ساعتين تابعنا مسيرنا مجدداً، وحوالي الساعة السّادسة أدركنا قافلتنا. كانت الخيام منصوبة، والجمال ترعى بسلام، والرّجال يقعدون حول نار صغيرة. كان الأمر يبدو وكأنه واحة صغيرة من السّلام والرّاحة الممتعة بعد مسيرتنا عبر الحرّ وكآبة الصحراء.

بينما كنا نتناول طعامنا، مرّت بالقرب منا قافلة أخرى من العرب العابرين، فدنا بعض نسائهم وأولادهم من خيمنا وتأملونا بحشرية واستغراب. ربما كانت الشموع والستائر والبسط الملوّنة هي التي جذبتهم. وبعد بضع دقائق اقترب رجالهم أيضاً، وقد ظهرت عليهم ملامح القسوة الخشونة، وخُيّل لي أن عيونهم تتّقد بالعداوة. ولكن محموداً البسّام

نهض وحيّاهم، فوضع يده ثلاث مرّات على صدره، ثم على شفتيه، ثم جبهته. ثم دنوا من بعضهم، وأحنوا رؤوسهم، وألقوا في الهواء قبلاً وتصافحوا. وبعد هذه التحيّة، لاحت على وجوه هؤلاء الأعراب القساة ابتسامة بشوشة صادقة كابتسامة الطفل، وأبدوا لنا بأنهم اعتبرونا أصدقاءً لهم. مكثوا قليلاً واحتسوا القهوة معنا، ثم اختفوا بعدها من جديد في الظلمة.

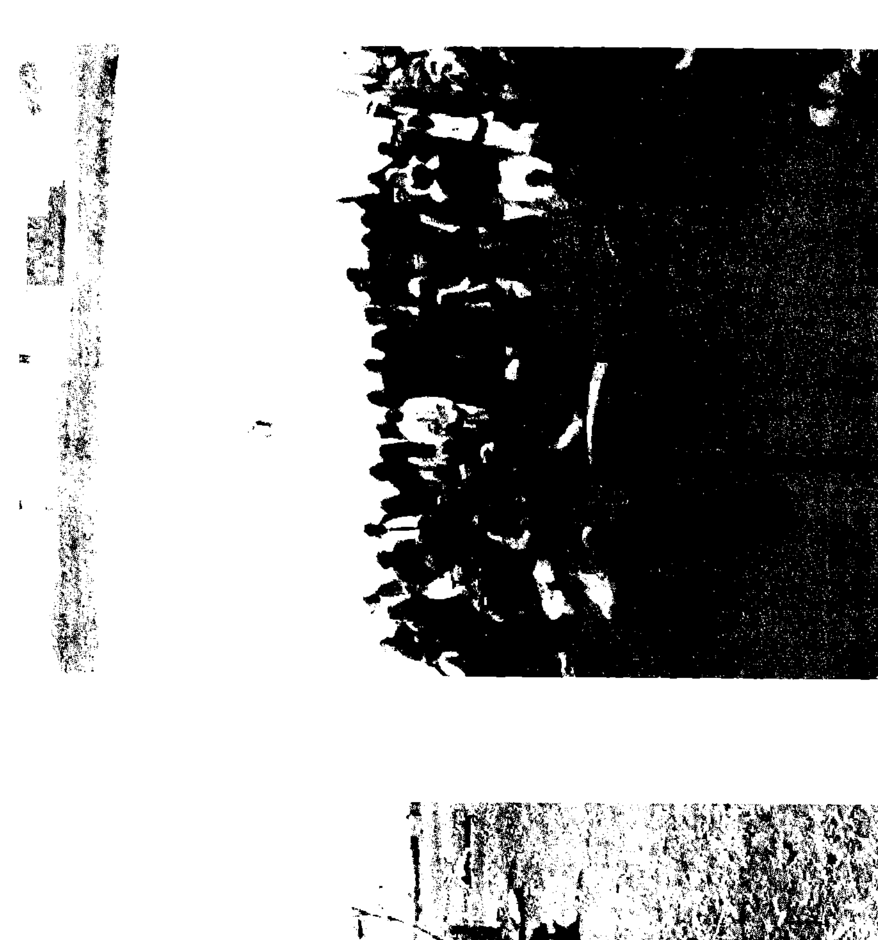
خلدت إلى النوم باكراً، لأننا كنا ننوي المغادرة قبل الفجر[1]. سرنا هذه المرة ببطء مع قافلتنا، وكان ذلك يوماً آخر من الجفاف والحجارة والكآبة. لكننا بعد المغيب بلغنا Mossul[2]، حيث وجدنا مياهاً عذبة، وأقمنا مخيّمنا في ما يشبه واحة الأقزام[3]. وكانت تخيّم قربنا فرقة من قبيلة «شمّر»، وبعد العشاء توجّهنا إلى بيت الشيخ. كان محمود البسّام صديقاً قديماً له، فاستقبلنا خير استقبال وأظهر لنا حسن الضيافة. سهرنا لما بعد منتصف الليل، وكان الغناء والرقص مستمراً طوال الوقت. تشابك حوالي عشرة رجال بأذرعتهم وراحوا يحرّكون ببطء رجلاً واحدة ورأسهم على إيقاع غناء وتصفيق الذين جلسوا حول النار. لم يتحركوا خطوة واحدة، بل استمروا طوال الوقت في مواقعهم. ثم رقصوا رقصة أخرى فاجأتني كثيراً: شكّل حوالي عشرين رجلاً دائرة مغلقة، بينما وقف أحدهم في المركز وشرع يرقص على وقع غنائهم وتصفيقهم، بهدوء ورزانة في البداية. ثم دنا من رجل في الحلقة، فبدأ ذلك يصفق يديه بشكل حادّ، فشرع الرّاقص على إيقاع التصفيق يرقص رقصاً محموماً، وهو يدور. ثمّ دنا من رجل آخر، راح يصفّق ببطء، فصار رقصه يقتصر على خطوات وحركات بطيئة. ثمّ صار الجميع يصفقون بشكل حادّ وعالٍ، فراح الرّاقص المسكين يدور ويدور وهو يتمايل بانثناءات والتواءات عجيبة ويدور بقوة أكثر، وكأنما تلبّسته روح شريرة. تفاجأت بتلك الرقصة، لأن الرجل العربي كقاعدة لا يتخلّى عن رصانته وهدوئه خاصّة أثناء الرقص. وقد سمعتهم يشبّهون الرقص الأوروبي بقفز السعادين وقد اعتراها جنون.

---

(1) العبارة في الأصل: before sunset ومن الواضح أنها سبق قلم.

(2) كذا ترد العبارة في الأصل، وهي محرّفة غالباً.

(3) العبارة في الأصل: in a kind of Lilliputian oasis، نسبة إلى جزيرة ليليبوت الخيالية وأقزامها الذين يبلغ طولهم ستة إنشات. لكن ما الذي تقصده بهذا التشبيه؟ لعلها تعني أن الواحة كانت صغيرة.



الرقصة

بيت شعر لقبيلة الشرارات في عدرا

إنهم يزدرون الحركات السريعة، وكذلك الكلام بسرعة وبصوت عال، ونادراً ما يبارح وجوههم الهدوء والنظرة الرزينة، وكأنهم يخجلون من أن تفصح وجوههم عن مشاعرهم. طالما تساءلت عن هذا الأمر، ولِمَ كانوا لا يبدون أيّ شعور تفاجؤ أو فرح غامر. وعندما كنت أُريهم شيئاً أوروبياً، من أغراض لامعة وغريبة لا بدّ أنها مثيرة لاهتمامهم، وأشياء لا ريب أنهم لم يروها من قبل، فقد كانوا لا يظهرون أيّ نوع من الفضول أو المفاجأة، بل ينظرون إليها بهدوء دون أيّ اهتمام وكأنهم ينظرون إلى شيء من أغراضهم اليوميّة العتيقة. لماذا كانوا هكذا؟ هل السرّ أنهم لاعتدادهم بأنفسهم كانوا يأنفون من إظهار فضولهم، أم ماذا بالضبط؟

في اليوم التالي، قادتنا مسيرة مملّة ورتيبة أخرى إلى مشارف حمص. كل ما رأيته حتى الآن حول البدو والحياة البدوية قد جعلني أتوق إلى بلوغ غايتي المنشودة في أقرب وقت، والمكوث لدى عشيرة «الرّوَلة»، إذ عندها فحسب تبتدئ بالنسبة لي حياة البداوة التي أنشدها. ولهذا السبب، قرّرت أن أبيت تلك الليلة وحسب في حمص، والمتابعة في اليوم التالي إلى تَدمُر. فهناك كان السّهل بأسره حافلاً ببيوت الشعر وبقطعان الأباعر التي ترعى، التابعة لعشيرتي الفدعان والسّبَعة[1]. ذهب محمود البسّام والدكتور خليل لإلقاء التحية على صديقهما الشيخ، ولكنني فضّلت البقاء وحدي والحلم بالأيام الآتية.

ناديتُ حَسَن، الذي كان طبّاخي وخادمي في الوقت ذاته، وطلبت منه تجهيز حصاني، فنظر إليّ نظرة استغراب بكثير من الاستغراب في عينيه الطفوليّتين، ليعود بعد بضع دقائق ومعه ايضاً حصانه مُسرجاً. لكنني أفهمته بأنني أرغب بالخروج وحدي. ومع ذلك فقد رأيتُ طيفاً يتبعني طوال الوقت عن بُعد، ربما كان خادمي الوفيّ الذي لم يرتضِ لنفسه تركي وحيدة. اجتزتُ بالمضارب، وكان كل شيء هادئاً ومظلماً، وحدها بيوت الشعر الكبيرة كان يلوح بداخلها وهج النار الموقدة، مع أخيلة أشخاص تتحلّق حولها. وتناهت إليّ أصوات ألحان غريبة وحزينة، ثمّ أطلقتُ لنفسي العنان البرّيّة المظلمة.

لا بد أنني مضيت لساعات طويلة عبر عتمة الليل المرصّعة بالنجوم، لأنه عند عودتي

---

(1) يرد الاسمان في الأصل مصحفين: the Tedan and the Gabâa ومن الواضح أن المؤلفة لم تعتن بمراجعة تجارب الطباعة بنفسها، أو أنها نسيت الأسماء بعد 11 سنة من الرحلة حينما تمّ طبع الكتاب سنة 1925.

ألفيت أنّ محموداً البسّام والدكتور خليل كانا قد عادا وقد استبدّ بهما القلق على غيابي. كانا قد بعثا برجال للتفيش عني في كلّ مكان خوفاً من يكون لحق بي مكروه. ولحق بحسن توبيخ بالغ لأنه تركني أخرج وحدي. يا للفتى المسكين! علمت بأنه تبعني طوال الوقت، لكنه الآن يخشى الاعتراف بأنه عصى أوامري، فراح يتلقّى التقريع والتوبيخ بصمت. بدا غريباً بأن العرب لم يثقوا ببني جلدتهم من لحمهم ودمهم، وكانوا خائفين دائماً من أن يصيبني أحدهم بمكروه. وعلى الرّغم من ذلك فقد شعرت بينهم بالثقة والأمان، أكثر بكثير ممّا شعرت به بين أهالي دمشق[1]!

بعد راحة لم تدم سوى ثلاث ساعات، تابعت قافلتنا الصغيرة مسيرها مجدداً. كان كلّ المتاع محمّلاً، وكنا قد شربنا على عجل فنجان قهوة، ومضينا في طريقنا إلى تَدمُر. سرنا حتى الساعة الحادية عشرة، واسترحنا حتى الساعة الخامسة، ثمتابعنا مسيرنا حتى السابعة، وتناولنا وجبة بسيطة من الطعام وغفونا بضعة ساعات، حيث كنا ننوي متابعة المسير خلال الليل.

ما أمتع تلك المسيرة الطويلة والوئيدة عبر الليل. وعلى الرّغم بأنّ القمر كان غائباً، فقد كان هناك ما يكفي من الضوء من النجوم التي كانت تشعّ ببريق يبدو خيالياً. مضت قافلتنا قُدُماً، وسارت جمالنا على الخطوة الوئيدة ذاتها، بإيقاع رتيب ومهيب، بينما كانت رؤوسها وأعناقها الطويلة ترمي ظلالاً عجيبة، وأجراسها الصغيرة الكئيبة تجلجل في العتمة. على هذا النحو قطعنا قفراً بعد قفر، وصمتاً بعد صمت، إلى أن وصلنا قُبيل الفجر إلى تَدمُر.

* * *

(1) قد لا يسرّ الدّماشقة لهذا الكلام، لكن لا مجال للمقارنة بين أهل البادية أهل القيم والشهامة والكرم، وبين العقليّة التجارية لأهالي المدن، القائمة على المصلحة وحب المال أكثر بكثير جداً من أي شيء آخر، حتى لو كان حسن الأخلاق ومعاني الرجولة.

الفصل السادس
الانضمام إلى قبيلة «الرّوَلة»

كان باستطاعتنا عن بُعد رؤية آلاف الخيام السّود المنصوبة في أرتال طويلة. كانت حركة الصباح قد دبّت في المضارب، وثمّة قطعان كبيرة من الإبل تطوف حولها. ميّز محمود البسّام المضارب بأنها تعود لقبيلة «الرّوَلة»[1]، من خلال تشكيلها ولون بيوت الشعر وحجمها[2]. أعطينا الأوامر لرجالنا بنصب خيامنا على مسافة قصيرة من المضارب. ونلنا جميعاً استراحة قصيرة، ثم ذهب محمود البسّام بعد ذلك لزيارة شيخ تَدمُر[3]، وعاد معه. وكم كان هذا الشيخ ذا طلّة عربيّة بهية تبدو عليها الكبرياء! دعانا لتناول الغداء في داره، وكان هذا الدّار يشبه حُصناً مسوّراً بأربعة جدران متينة[4]. ولكن حالما دخلناه، خُيّل لنا بأننا في جنّة من الجمال والدّعة. كانت واحة صغيرة، مليئة بأروع الفواكه والأزهار، والنوافير والبرك الصغيرة في كل مكان. لقد كان محقاً بأن يفخر بامتلاكه منزلاً كهذا.

تعيّن علي أن أقطف زهرةً من كل شجيرة، وأتذوّق كلّ صنف من الفاكهة المختلفة، ثمّ عدنا إلى مخيّمنا محمّلين بالفاكهة والأزهار. تجمّع كلّ أهل داره للقائنا: زوجاتِه وخدمه

---

(1) من الواضح تماماً كما سيتبيّن أدناه أن القبيلة التي نزلوا بمضاربها ليست الرّولة (وكان شيخها آنذاك النوري بن هزّاع الشعلان)، بل فرع الأيدا الشماليين من الولد علي (من عشائر ضنا مسلم من عنزة) وكان شيخهم الشاب سلطان بن سطّام الطيّار. راجع ما ذكره عنه الرحّالة التشيكي ألويز موزيل في كتاب «في الصحراء العربية»، نشرناه في السلسلة مؤخراً.

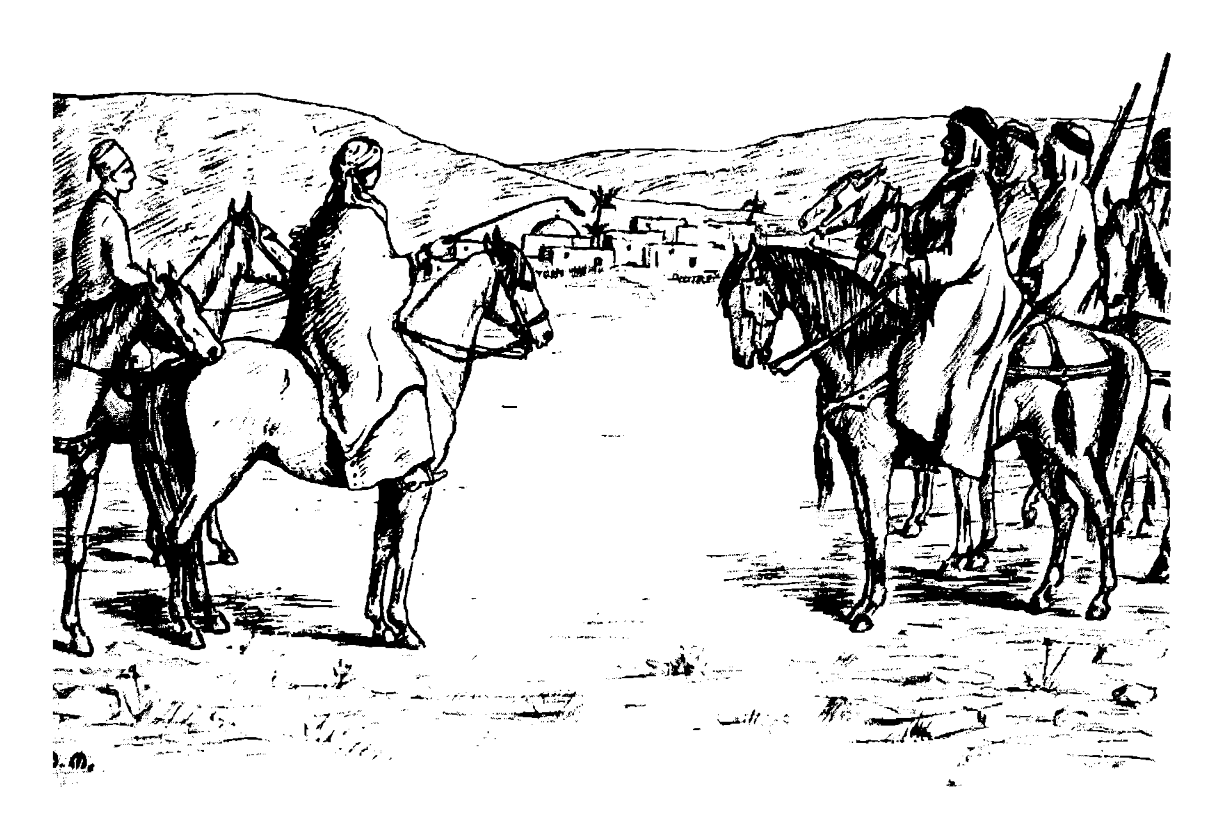
(2) لا بدّ أن محموداً قد ظنّ عن بُعد أن المضارب تعود إلى الرّوَلة، ثم فهم لاحقاً أنها مضارب الولد علي، لكن المؤلفة على ما يظهر قد دوّنت اسم الرّولة في مذكراتها، وفاتها أن تدرك لاحقاً ما استدركه محمود. لكن هذه تبقى نقطة ضعف في كتابها.

(3) شيخ تدمر آنذاك كان الشيخ محمّد العبدالله الطالب العرّوق (العرّوج) الذي يعود أصله إلى بني لام في الأحساء (توفي سنة 1928). له ذكر وافٍ في رحلتي الليدي آن بلنت وزوجها ولفريد في رحلتيهما الرائعتين اللذين سننشرهما في هذه السلسلة: عشائر بدو الفرات (1878)، ورحلة حج إلى نجد (1878–1879).

(4) كان شيوخ تدمر من آل العرّوج (آل العبدالله اليوم) يقيمون في محيط معبد بعل في تدمُر.

من الفتيان والفتيات الذين يعاملهم كأولاده، والذين يحبّونه حبّاً جمّاً. بعد تدخين النرجيلة مع الرجال وشرب بعض القهوة، تركتهم لأذهب بمفردي في نزهة قصيرة في تلك الحديقة المدهشة مع الأولاد والبنات. ويا للألق والسعادة اللذين أطلاّ من عيونهم! ويا لروعتهم وجمالهم، وكم كانت تبدو عليهم الأنفة والعزّة، رغم أنهم يحملون اسم العبيد! ولكن هذا مجرّد اسم، ولا يعني هنا شيئاً.

عند الغداء قامت الفتيات بخدمتنا، وطفقن يدخلن ويخرجن برشاقة بأرجلهن الصغيرة الحافية، وخلاخيلهن الفضيّة تصدر موسيقى ناعمة كلّما رحن وأتين. كم يحلو للمرء الحلم بتمضية حياته في هذه الواحة المسيّجة من الفواكه والرّياحين، بين مودّة هذه الأزاهير الصّحراوية الصغيرة المشرقة ذوات العيون السّود.



اللقاء بقبيلة الرّوَلة

كنا قد أرسلنا ترجماني إلى أمير قبيلة «الرّوَلة»[1] لينقل إليه تحياتنا ويبلغه قصدنا بزيارته. وبعد الظهر، ذهبنا أنا وشيخ تَدمُر، ومحمود البسّام، والدكتور خليل وحسن عبد الله. وكان من السهل تمييز خيمة الشيخ سلطان لأنها كانت الأكبر وتقوم وحدها منفردة تماماً. عندما وصلنا قرب بيت الشعر، تعيّن علي أن أمضي إلى الأمام وحدي، بينما مشى الباقون خلفي تاركين مسافة ليظهروا أنني شخصيّة مهمّة. فخرج سلطان من بيت الشّعر، وتبعه رجاله ليستقبلوني ويلقوا التحية.

بعد أن أبدى الجميع إعجابهم بالخيل، وتمّ تبادل التحيات، دلفنا كلنا إلى الداخل. كان بيت الشعر أسود كبيراً يبلغ مداه حوالي أربعين ياردا وعرضه اثنا عشر ياردا، وكان مفتوحاً على كامل واجهته. وهو منسوج من وبر الجمال من عمل أيدي نساء البدو. لقد تفاجأت بالراحة المتوفرة بداخله. هناك بُسط مفروشة، وكانت إحداها رائعة الجمال وقد جُعلت خصيصاً لي ونثرت عليها ست أو سبع وسائد لكي أسند رأسي عليها. تمدّدنا كلنا وأخذ محمود البسّام وسلطان يتبادلان الأخبار، فيما بدأت مراسم تحضير القهوة العربية. يحمّص البنّ أولاً في محماس كبير على لهب النار، ثمّ يتمّ طحنه في مهباج خشبي كبير ذي مدقة خشبيّة تهوي على البنّ بشكل إيقاعي فتصدر موسيقى رتيبة ترافقها أغاني الرّجال، الذين يتحلّقون جميعاً حول النار. ثمّ تُغلى القهوة، وتُصبّ في دلّة أخرى. ويتمّ عمل ذلك ثلاث مرّات. تأخذ هذه المراسم حوالي نصف ساعة من الوقت، فيحضرها الجميع كأنها طقس احتفاليّ مهم.

وأخيراً، صارت القهوة جاهزة وتمّ صبّها في فنجان عربي صغير، بما لا يزيد عن ثلاثة ملاعق صغيرة من القهوة. وقُدّمت لي أنا قبل سواي. كانت القهوة دون سكّر، مرّة كالسمّ.. ولكي تُظهر للآخرين إعجابك، عليك ان تحتسيها مصدراً أعلى صوت ممكن، وهذا كعلامة على حُسن السّلوك. كان هناك فنجان واحد فقط، وبعد أن فرغت منه، مُلئ

---

(1) هذا غلط فادح، فالرّولة كبرى عشائر عنزة في بادية الشام ووادي السّرحان والجوف وصحراء النفود أشهر من أن تعرّف، وليست هي القبيلة المذكورة هنا (الولد علي)، وإن كانت تربط بينهما وشائج القربى بكونهما معاً من ضنا مسلم. وبمجرّد ذكر اسم الشيخ سلطان الطيّار ينقطع الشك باليقين، ويتبيّن أن هذه قبيلة الولد علي، فرع الأيدا الشماليين بزعامة آل الطيّار، تمييزاً لها عن الفرع الآخر (الأصغر منها) برئاسة آل شمير، الذي كان أشهرهم آنذاك الشيخ محمد الدّوخي ابن شمير.

مجدداً وقُدّم للشيخ سلطان. وبعدها مرّروه لكل الموجودين في بيت الشّعر إلى أن عاد إليّ مجدداً. وعندما يُقدّم الفنجان مرّة أخرى فمن العيب الكبير رفضه، ولكن على نقيض ذلك إذا أخذه المرء في المرّة الثالثة كان ذلك إعلاناً للحرب. هذه هي عادات البدو التي يتوجّب على المرء دراستها ومعرفتها، لئلاّ يؤدّي جهله إلى ارتكاب شيء مهين.



مع الشيخ سلطان الطيّار وشيوخ عشيرته



بعد انتهاء أعمال النهار

يبلغ الشيخ سلطان الطيّار حوالي الثلاثين من العمر[1]، ولكنه لم يبدُ شامخاً ومتكبّراً كباقي شيوخ عشيرته. كان يجلس حوله حوالي ثلاثين شيخاً عجوزاً، وكان الحديث يدور خصوصاً حول الخيل، أو عن بعض الغزوات الماضية، كما طُرح الكثير من الأسئلة حول أوروپا.

دعاني الشيخ سلطان للبقاء لتناول العشاء. فذُبح خروف وتمّ تنظيفه وشُوي كما هو كاملاً أمام بيت الشّعر. وقُدّمت أطباق هائلة من القش عليها برغل مسلوق، فجلسنا حولها جميعاً وأكلنا، بأصابعنا طبعاً. فالمرء يعمل كرة صغيرة من البرغل بين أصابعه، وينقفها ببراعة داخل فمه، وهي عمليّة سهلة. وقد اكتسبتُ خبرة كبيرة بعد ممارستي لها عدّة مرّات.

قطّع الشيخ سلطان بنفسه الخروف بسيفه الكبير. لم أكن لأمانع بالتقاط قطعة منه كجرو صغير، لولا أنه كان مدهناً إلى حدّ فظيع. وبعد الوجبة أحضر لنا الخدم الماء في طاسات جميلة لنغسل أيدينا ووجوهنا.

عندما فرغنا من الطعام، أمر الشيخ سلطان بوصلة من الرقص. فتمّ إشعال المشاعل حول بيت الشّعر. أتى رجلان ومعهما طبلان ضخمان إلى داخل الحلقة، وراحا يناديان النساء لكي يتجهزن للرقص. وانضمّ إليهما ستة رجال ومعهم نوع من المزامير.

بعد بضع دقائق، بدأت النساء الرقص متمايلات بخفّة، حاملات سيوفاً فضيّة في يد وفي الأخرى مشاعل منارة. كنّ نساءً جميلات طويلات القامة وذوات ملامح كلاسيكية، يرتدين أثواباً طويلة حمراء منسدلة وفوقها شالات بنفسجية. وضعن على رؤوسهن زينة ذهبيّة اللون، تتدلى منها قطع نقديّة فضية وذهبية على جبهاتهن.

كانت الرقصة عبارة عن تمايل هادئ وتلويح بالسيوف والمشاعل. كانت تشبه رقصة

---

(1) ولد الشيخ سلطان بن سطّام بن جضعان الطيّار في بادية الشام عام 1895، فعلى ذلك لم يكن له من العمر في سنة 1914 غير 19 عاماً. لكن ذكرها للشيخ وإيرادها لصورته يرفع من مصداقيتها، وإن كانت تعوزها الدقة والتمحيص. يبقى أن نذكر أن الشيخ سلطاناً توفي في الجوف عام 1979. ويعلّق الرحّالة التشيكي ألويز موزيل (الذي كان في شمال الجزيرة عام 1914) بأن كلام دوروتيا في رأيه غير صحيح، فلم يُعرف عن سلطان الطيّار أنه اصطحب امرأة أجنبية في رحلة عبر بوادي الشام والجزيرة.

تعتريها النشوة! وكان قارعا الطبول يرقصان أيضاً أثناء العزف. وكانا يتواثبان بين النساء، يلحقان بهنّ ويتعابثان مفتعلين تعابير مضحكة على وجهيهما. لقد كانا هزليين ومسلّيين إلى حدّ ما، وكان بإمكانهما جمع ثروة لو رقصا في إحدى القاعات الأوروپية. راحا يطفران كشيطانين أو كمن به مسّ شيطاني، فنجم عنهما تباين غريب مع الوقار الهادئ للرّاقصات.

دامت الرقصة أكثر من ثلاث ساعات، وعندما تتعب النساء كانت تأتي أخريات تتمايلن للحلول مكانهن. كان المشهد جميلاً، مع المشاعل المضاءة، والحركات الرّشيقة الوئيدة للنّساء بسيوفهنّ الفضيّة وقطع النقد الذهبيّة التي تلتمع في الضوء. وعندما انتهت الرقصة أخيراً، قمنا جميعاً بنثر بعض العملات الفضيّة نح الحلقة، ودعا الشيخ سلطان الراقصين لتناول وجبة في خيمتنا. تناولوا المزيد من البرغل المسلوق وقطع لحم الخروف، وشربنا جميعنا العَرَق مع الماء. كانت الساعة قد جاوزت الثالثة فجراً عندما عدنا في الختام إلى خيامنا.

مضت اربعة أيام على تخييمنا قرب قبيلة «الرّوَلة»[1]. أربعة أيام من الصداقة مع الشيخ سلطان الطيّار، ويا لها من أربعة أيام من الرومنسية والجمال!

كنتُ أزور الشيخ سلطان ثلاث مرات في اليوم، فنذهب خلالها للتنزه على صهوات الخيل معاً، ونزور شيوخ القبائل الاخرى التي تنزل بمضاربها في تلك الناحية. كانوا يستقبلونني في كل مكان بالاحترام وكرم الضيافة. ولكن كان علي تعلّم أمر معيّن: هو عدم الابتسام البتّة، وعدم إظهار الدهشة البتّة، والظهور دوماً بمحيّا الحزم والكبرياء والتفوّق. أُحياناً كان ذلك مهمة صعبة مع الأحداث التي غالباً ما حصلت أمامي وكانت مدعاة للضحك والمرح. كما كان التهذيب حسب العُرف الأوروپي أمراً مغلوطاً، فاذا قلت «شكراً» كان ذلك بمثابة إهانة لنفسي ونزولاً إلى مرتبة الخدم. كانوا جميعاً ينادونني بالأميرة Emira، رغم أنني لم أزعم كوني غير كونتيسة بسيطة. ولكنني في مخيلاتهم كنت شقيقة ملك إنكلترا، وعندما كنت أتحدّث إلى محمود البسّام عن تلك المبالغات، كان

(1) نذكّر مجدداً: الصواب أنها عشيرة الولد علي وليس الرّولة.

يرجوني بأن أُبقي الأمور والظنون على حالها.

في اليوم الخامس لإقامتنا، رتّب لي الشيخ سلطان بعض السباقات. كان مشهداً رائعاً رؤية تلك الأحصنة العربية البديعة مع فرسانها المجلّين بعباءاتهم البيضاء والسوداء الفضفاضة وسيوفهم التي تلمع في نور الشمس. بعد ذلك جاء دور بعض الألعاب الحربية، فانتابني الرعب في بعض الأحيان جرّاء اعتقادي لوهلة بأن معركتهم كانت حقيقية بسبب حدّتها. كما أن أهازيجهم الحربيّة أثارت حميّة الخيل، التي راحت تنطلق كالرّيح، وعيونها تقدح شرراً، ومناخيرها ترتجف. وخلال طراد الخيل، كان البدو يطلقون بواريدهم، دونما اكتراث أين يصيب رصاصهم. كان مشهداً من الجمال البرّي الوحشي، ولكن، فتمنيت أن أرى ذات يوم معركة حقيقية بين قبلتين متنافستين.

دعاني الشيخ سلطان للبقاء عنده، وعرض علي تشييد بيت شعر مستقلّ لي، مع شيوخ يعتنون بي. إنما لم أوافق على ذلك، ونصبنا خيامنا بالقرب من بيت الشيخ، فصرنا ننتمي إلى مضارب قبيلة «الرّوَلة». كنت أتناول وجباتي معهم، وذهبت في نزهات على ظهور الخيل معهم، وكنت في الليل أشرب القهوة وأدخّن نرجيلتي في خيمة الشيخ سلطان، واستمعنا إلى الغناء وقصص الحروب التي يخصّني بها الشيوخ. أخبروني عن مآثر رجالهم وجرأتهم في الحرب، وعن أصالة خيولهم وهجنهم وقوّتها. أمّا الحبّ فنادراً ما كان بين موضوعات مرويّاتهم. أحياناً كانوا يغنّون قصصهم، فيغني أحدهم ويرافقه الأخر على آلة ذات وتر مفرد[1]. فكنت أضطجع واستمع لساعات، وأنا أتفرّج على وجوههم البدوية الفخورة التي وشّحها ضوء النار الموقدة.

(1) هي الرّبابة، قيثارة البدو الشهيرة.



جمال ترعى



قافلتي على طريق تدمُر

لاحقاً عرض علي الشيخ سلطان الذهاب لصيد الأرانب أو الغزلان. شكّلنا فريقاً من ستين شخصاً يمتطون الأحصنة الجيدة، مع سربة من الكلاب السّلوقيّة. بعد مسيرة ساعتين، صادفنا قطيع غزلان كبير، فتبعناه واصطدنا منه. كان مشهداً جميلاً: تلك الخيول البديعة وهي تعدو، والبدو بعباءاتهم المنسابة، يلوّحون ببواريدهم في الهواء، ويخفّون إلى القفز عن صهوات جيادهم لإطلاق النار، ثم يعودون إلى الجري بالأحصنة من جديد. في حوالي ساعة كنّا قد قتلنا اثنين وعشرين غزالاً، وعُدنا إلى المضارب حيث استقبلونا بالفرح الغامر، فبعد كل رحلة صيد كان لا بدّ من وليمة عامرة.

ذلك المساء، سُمِحَ للجميع بالانضمام إلى الوليمة، فكان قرب الشيوخ بعباءاتهم الفاخرة المطرّزة بالذهب يجلس بعض البدو الفقراء بأسمالهم البالية. كان الجميع ضيف الشيخ سلطان في تلك الأمسية، أغنياءً وفقراء، وأعياناً وبسطاء. أُضيئَ المخيم بأكمله بالمشاعل، وطفق الرقص والغناء يستمرّان طوال الليل. كان الرجال يجلسون في مجموعات تتراوح بين العشرين والثلاثين حول أطباق القش الهائلة، العامرة باللحم والبرغل، وظلّ الخدم يحضرون المزيد والمزيد. ذكرّني ذلك بالهيريرو Herreros في أفريقيا الجنوبية، الذين كانوا بعد كل رحلة صيد، تُقام مأدبة ضخمة فتملأ البطون ليتبعها بعد ذلك أسابيع من الجوع.

ولكن على أيّ حال، تبيّن لي بأنّه ليس للبدو دستور حياة الهيريرو الرائع. ففي أحد الأيام، أعطيت امرأة بدوية، دواءً بسيطاً بعد أن شكت لي بعض الأوجاع. ولا بدّ أنها أخبرت الجميع عن ذلك الدواء الأعجوبة، لانه في اليوم التالي، تجمع حشد كبير من العرب أمام خيمتي ليشكوا لي معاناتهم من التّخمة جرّاء وليمة البارحة. كانوا واثقين من قدرتي على مساعدتهم، وحملوا جميع أصناف الهدايا الصغيرة والكبيرة كعربون شكر لي. أعطيت للجميع حبّة أو حبتين من الدّواء نفسه (cascara) فمضوا عائدين. رجاني رجل إعطاءه عشر حبّات لأنه أراد إعطاء باقي أفراد عائلته الذين عانوا هم أيضاً من العوارض نفسها، ولكني سمعتُ لاحقاً بأنه ابتلعها كلّها بمفرده. لكنني لا أظن مع ذلك بأنها أضرّت به.

كما أهداني أحدهم كعربون شكر لي لشفائه حواراً صغيراً، ويا له من حيوان جميل، تام البياض ويكسوه وبر ناعم الملمس، جميل ولطيف جداً! لا ريب أنه أجمل حوار في

الدنيا! لو كان لديّ أحد تلك المهاد الخاصّة بالأطفال من صنع دمشق، لكنت جعلته ينام فيه وأنا أهدهد له.

شعرت بضرورة ردّ الجميل للشيخ سلطان الطيّار وشيوخه على استقبالهم وكرمهم، فوجّهت الدعوة له ولشيوخه العشرين لتناول العشاء في خيمتي في إحدى الأمسيات. أردت تقديم عشاء أوروپي لهم، ولكن الدكتور خليلاً أقنعني بأن هناك احتمالاً كبيراً ألا يحبّوه أو لا يمسّوه حتى، لأنهم ليسوا معتادين على هذا النوع من الاطباق. حسنٌ إذن.. فلنقدّم لهم وجبة عربية مع بعض المقبّلات الأوروپية. ولكنّي فكّرت بأن أعدّ لهم «الپودينغ» المحضّر من الخوخ[1]، لأنني كنت واثقة من أنّ الپودينغ المشتعل سيروق لهم.

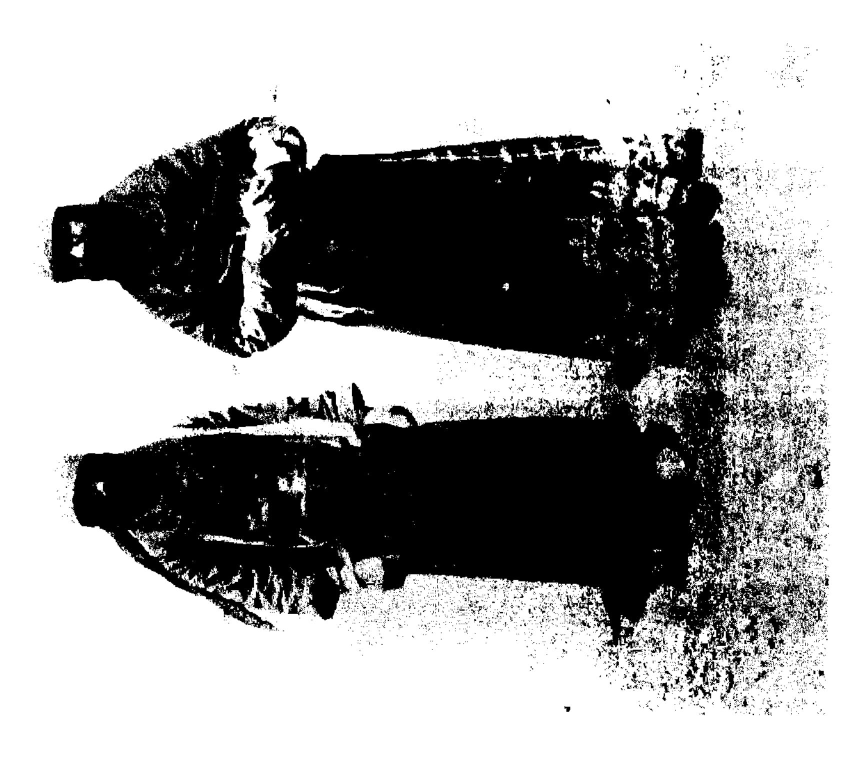
بفضل مساعدة شيخ تَدمُر، الذي وضع حديقته كلّها تحت تصرفي، استطعت تغيير داخل خيمتي وإضافة بعض الحياة عليها بواسطة الأزهار والفواكه المشكّلة مع الفوانيس الملوّنة. وأمام خيمتي وضعت سجادتين مع دكّتين وشجرتين صغيرتين على الجانبين، لتشكيل ممرّ صغير. وفي داخل الخيمة وضعت طاولة منخفضة وزيّنّها على الطراز الأوروپي بالعديد من الشموع الملونة والأزهار والفضيّات والكريستال البوهيمي الملوّن، وبعض علب الهدايا الكبيرة التي تفرقع عند فتحها. كانت كل تلك الأغراض معي أحملها كهدايا في كل مكان أزوره. ومن وسط الخيمة تدلّت أكاليل زهر كبيرة وأشرطة بنفسجيّة، تنضمّ معاً في مركز الطاولة. وتركت ترتيبات الأكل لمحمود البسّام وحسن، باستثناء پودينغ الخوخ الذي سأعدّه بنفسي.

عند الساعة الثامنة وصل ضيوفي بألبستهم الفاخرة، وقد ارتدى الشيخ سلطان عباءة مجدولة بأكملها بالذهب. لو أنني توقّعت منهم بعض الدهشة لما قد جهّزته في خيمتي وطاولتي، فلا ريب أنني كنتُ مخطئة. فلقد نظروا إلى كل شيء بعدم اكتراث وفتور تشوبه الأنفة. ولا حتى ظهر عليهم الاستغراب أو الإحراج عند استعمالهم الشوك والملاعق. بدا كل شيء طبيعياً لهم، ولقد أعجبت بهم لذلك. ولكن عندما قُدّم «پودينغ» الخوخ المشتعل خرجوا من تعابيرهم الهادئة لتندّ عنهم صيحات الاستغراب والدّهشة الواضحة، وكنت سعيدة لأن فكرتي لقيت نجاحاً ملحوظاً.

---

(1) الپودينغ: حلوى تُعدّ من دقيق ولبن وبيض وفاكهة وسكّر.

شيخ تدمر



نساء من عشيرة الزوَلة

كنت قد رتبت تقديم هدايا لكل واحد من ضيوفي، أمّا للشيخ سلطان فقد كنت اخترت علبة جميلة الصنعة بها مسدّسا براونينغ كبيران. ولقد أخفيتُ ذلك كله في مفرقعات كبيرة، وربطتها حول عنق حواري الصغير. وقامت اثنتان من الإماء المليحات العائدات لشيخ تدمُر بجلب الحوار بعد الطعام، وأناختاه أمام الجميع ليأخذوا هداياهم. كانت العلب المفرقعة شيئاً جديداً عليهم، فأسعدتهم المفاجأة الصغيرة كالأولاد الصغار. وأعجب الشيخ سلطان بهديتي كثيراً، فأدناها – حسب العادة العربيّة – من شفتيه، وصدره وجبهته، ثمّ ألقى الخطبة المنمّقة التالية:

«يا مضيّفة الأحبّة! يا وردة الشجر! يا أميرة وابنة الأمراء التي لم تَجُد الدّنيا بمثلها! التي الله معها، يا من شرّفتينا بحضورك! أقسم برأسي وبعيني أنني بخدمتك، وبأنني بهذا السّلاح أدافع عنك، أينما كان وكائناً من كان العدوّ، سيكون مصيره الهزيمة والموت. وبأنني أنتضي ثوبي وأركض كالمجنون إذا لم أردّ لك كرمك هذا ضعفين. أطلبي وتمنّي! بارك بك الله! والله يحفظك!».

* * *

الفصل السابع
التنقّل معهم عبر الصحارى الداخلية

بعد أيام قليلة من وليمتي، تمّ هدّ مضارب عشيرة «الرّوَلة»[1]، وبدأت العشيرة تتحرّك صوب بادية «الحَماد». دعاني الشيخ سلطان للبقاء والعيش معهم، وأعطى الأوامر بأن رغباتي مهما كانت يتوجّب تنفيذها في المضارب كلها كما لو كانت رغباته هو. ولكن لم يكن هناك من حاجة لإصدار مثل تلك الأوامر، فجميع البدو في تلك القبيلة كانوا يحاولون إظهار أكبر درجة من الاحترام لي والاستعداد لخدمتي. فشعرت بأنني في منزلي بينهم كما لم أشعر سابقاً. لقد راقت حياتهم لمكنونات عميقة وغامضة في نفسي وكأنها قبل أزمنة بعيدة قد امتزجت في حياتي بحياة الحريّة وعشق البراري، كحياتهم.

لا شيء بوسعه إفساد السّكينة والانسجام في حياتهم وأفعالهم. أمّا أنا فقد شعرت بقلبي يجتاحه الأمان كل يوم أكثر من ذي قبل، ولقد صفت عيوني وعقلي، وحركتي أصبحت هادئة ورزينة كالبدو. ما أبسط حياتهم! وما أنقى هؤلاء القوم! أفعالهم حازمة وقوية كوجوههم، ومع ذلك فلهم إيمان وقلوب الأطفال.

كم هم مختلفون عن عرب مصر والمغرب! فأولئك قد تبعوا المدنيّة، تعلّموا وتثقفوا ليواكبوا تطوّر العصر، أمّا البدو فقد حافظوا على نقاوتهم وبدائية حياتهم. لديهم عقاب الكاذب أكبر بكثير من عقاب سارق الجمل. ومع ذلك فقد لاحظت أمراً غريباً: لم يكونوا متعصبين دينياً ولا متديّنين جداً. وضعوا ثقتهم وإيمانهم في الطبيعة وقوّتها أكثر ممّا وضعوهما في أي شيء آخر[2]. والواقع أنّ مبادئ الشرف وقيمه لديهم رفيعة للغاية.

اشتريت من الشيخ سلطان ثلاثاً من كرائم الهجن الذلائل لتنقلنا عبر الصحارى. فاختار لي بكل شهامة وكرم أفضل أباعره، وأعطاني إياها. وإني واثقة بأنه قد عمد إلى انتقاء

---

(1) بل الولد علي، وليس الرّولة.

(2) هذا مجرّد تقوّل من المؤلفة ينافي الواقع، ولا يعدو أن يكون فهمها الشخصي القاصر.

خيرة ما لديه! لقد دفعت أربعة عشرة جنيهاً لقاء كل جمل، وقد بدا لي سعراً جيداً، نظراً لدفعي اثني عشر جنيهاً لقاء بعير للتحميل. كما أهداني الشيخ بعضاً من الأرسان الحريريّة والأجراس الفضية والذهبية لرؤوس الجمال. كل ما بقي لنا لجلبه هو شدائد الجمال، التي وعدني شيخ تَدمُر بأن يحضرها لي خلال يومين.

أيقظني قرع الطبول باكراً، وقد علمت بأنه كان إنذاراً ليوم هدّ بيوت الشّعر، ويوم الانطلاق في المسيرة كما اختار الشيخ سلطان. وبسرعة، ارتديتُ ثيابي وذهبت لأُشاهدهم وهم يعملون، وقد كان مشهداً جميلاً. احتوت المضارب على أكثر من أربعة آلاف خيمة، قامت النسوة بإنزالها وطيّها، لكي يستطيع الرجال حملها ووضعها على ظهور الجمال، التي اصطفت في خمس صفوف يراقبها فتيان البدو. راح الرّجال يحملون الرّزم ويوسقون الجمال، بينما اهتمت النساء ايضاً بالأولاد والحاجيات المتبقية، ورحن يضعنها هي والأطفال فوق باقي الأغراض. فكان هؤلا الأطفال يتأرجحون ويتمايلون بلا وجل، ويبدون معتادين على ذلك تماماً.

أصبح كل شيءٍ جاهزاً خلال وقت بسيط جداً بالرّغم من العدد الهائل للخيم والجمال. أرادنا الشيخ سلطان أن نمتطي جيادنا ونمشي أمامهم، ولكني طلبت منه البقاء لكي أتمكن من مراقبة الموكب وهو ينطلق.

كان ذلك بالفعل مشهداً مهيباً وكأنه آتٍ من كتب العصور القديمة. في المقدمة مشى قطيع الجمال الضخم، يرافقه الرجال والأولاد، ثم تبعته الجمال التي حُمّلت بالخيم والمؤن وقِرب الماء، وفوق الجميع جثم الأطفال. وبقرب الجمال مشت النساء، حافيات الأقدام بحطوات ونيده، يغنين أغانيهن البدوية الوحشيّة المليئة بالشجن. لقد بهرني هذا المشهد وأسر قلبي، فنسيت لوهلة كل الحياة التي عرفتها من قبل، وشعرت بأنني قد عدتُ بالزمن إلى الوراء إلى أيّام إبراهيم.

بعد ذلك، تبعنا الرّكب وسرعان ما أدركناه. سرنا طوال النهار، لنرتاح لمدة ساعتين فقط. وجمعنا في أخراجنا طعاماً يكفينا ويجعلنا مستقلين عن القافلة لمدة يومين على الأقل، كما تمدّدنا واستغرقنا في النوم، ملتحفين بعباءاتنا تحت السماء، تأملتُ جيادنا التي كانت تمشي كل النهار دون أن تتعب، وفي اليوم التالي تبدو نشيطة وتفور بالهمّة كأن الرحلة لم تكن. وفي طريقنا أيضاً صادفنا قطيع غزلان فاصطدنا بعضا منها.



الشيخ سلطان الطيّار أقوى عبد لديه



المؤلفة عند آبار باب العمرة Babin-El-Amrah

بعد مضي يوم آخر، ستلحق بنا قافلتنا. كنا نتحرك خلال وادي الفُرات، وبلغنا الآن الحدود الشمالية لصحراء الحَماد الكبرى، قرب وادي مَجسر، حيث ينبغي لنا أن ننتظر قافلتنا.

وصلت القافلة عند المغيب. وفي وقت قليل تمّ تنزيل الأحمال نصبت الخيم مجدداً، وأشعلت مئات النيران فأضاءت المخيّم. لكننا سنقضي مجرّد يوم وليلة، إذ لم يكن هناك يتوفر من الماء والمرعى للجمال ما يكفي لإقامة طويلة.

كان المخيم يقام دوماً وفق هذه القواعد: أولاً تُنصب خيمة الشيخ سلطان على حدة، وبعدها تُنصب خيم الشيوخ الكبار، وتترك بينها مسافة، وبعد هذه الخيم تُنصب تلك التابعة للدوّار[1] adnar. و«الدّوّار» يتألف من حوالي عشرين عائلة تكون في العادة متقاربة من حيث النسب. تُنصب خيامها في خطين طويلين متوازيين يبعد بعضها عن الآخر نحو ثلاثين قدماً لتترك فسحة في المنتصف. وهي جميعها مصنوعة من وبر الجمل ذي اللون البني كلون الشوكولاته، تقوم على عُمُد ضخمة وتُربط بالأطناب. بعض الخيم تُقسم إلى قسمين بواسطة نوع من حاجز يتألف من عيدان صغيرة من الخوص، ينام الأب والأم في شقّة والأولاد في شقّة أخرى. ولا يتجاوز عرض الخيم ستة ياردات وطولها عشرة. وهذه الخيم بسيطة على عكس خيم الشيخ سلطان والشيوخ، فوضعت فيها حصيرتان، وصندوق خشبي دهن بلون فاقع، وبعض العباءات التي تغطي الأعمدة الخشبية، حجران كبيران لطحن الذرة، بعضاً من جلود الماعز، خمس أو ست أوان خشبية، بندقية وعدد من الخناجر، وفي زاوية الغرفة قد تجد دجاجة مع صغارها، وهذا كل شيء[2]!

لكل فرد من «الدّوّار» خيمته المستقلة، وفيه أيضاً يعيش المعلّم الوحيد الذي يدفعون له لقاء خدماته الأرز، والدجاج أو القهوة. عندما لم نكن نتحرك في الصحراء، كان صغار البدو يتجمعون كل صباح ليردّدوا الآيات القرآنية، ولكنهم سرعان ما يكبرون ليتعلموا ركوب الجمال والاهتمام بالقطيع فينسون القليل الذي تعلّموه.

---

(1) هكذا ترد العبارة في الأصل: adnar، مصحّفة على الأغلب. وقد قابلناها بعبارة الدوّار المستخدمة في مضارب البدو، لأنها تبدو الأقرب إليها.

(2) ترد العبارة في الأصل بالفرنسية: *et voilà tou!*

عند شروق الشمس تبدأ الحياة في «الدّوّار»، فتذهب النساء لحلب المعزى والنوق ثمّ مخض السّمن، وباللبن الخاثر المتبقي تُعدّ وجبة الافطار. في تلك الأثناء يكون الرجال قد خبزوا بعض الخبز، وهو عملياً الأمر الوحيد الذي يقومون به. وخلال بقيّة النهار يمضون الوقت بزيارة بعضهم في الخيم، يدخنون ويتحدّثون ويحتسون القهوة.

أمّا الصبيان الصغار فيقع على عاتقهم الاهتمام بالجمال ومراقبة الخراف والمعز. أمّا النساء فهن على النقيض من ذلك يعملن طول النهار، فينسجن القماش لثيابهن، ويغزلن شعر الجمال في خيوط، تصنع منها بيوت الشعر، ويذهبن لجلب المياه ويحضّرن الطعام للعشاء. كانت الوجبة المعتادة هي «الكزكز» *kuzkuz* وهي عبارة عن قمح مطبوخ، مع بقول كبيرة الحجم، وبصل ونوع من البطيخ، تسبح جميعها في بحور من الدّسم.

عند المغيب يتناولون العشاء، كل عائلة في خيمتها الصغيرة، ثم يأوي الكثير منهم رأساً إلى فراشه، بينما يتجمّع الآخرون أمام خيمة الشيخ سلطان، أو يذهبون إلى دوّار آخر، فيجلسون متجمعين حول النار، الكبيرة ليتبادلوا رواية القصص وليدخنوا. ولكن معظم خيام الدوّار كانت تبقى مظلمة وساكنة بعد انتهاء وجبة العشاء، ولا يُترك سوى ضوء خافت أمام الخيمة لطرد الأرواح الشرّيرة التي قد تنتابهم إن لم يتركوا نوراً مضاءً!

بعد استراحة دامت يوماً واحداً، نقضنا مضاربنا للمضي قُدماً، لعدم توفر المياه ومرعى الجمال بما يكفي للبقاء لفترة أطول. كان أمراً رائعاً الاستيقاظ في صباح كل يوم في مكان مختلف من الصحراء الشاسعة، ومغادرة الخيمة والانغمار في الضوء والخلاء، والاستمتاع بالحياة، واستنشاق الهواء النقي الذي كان كالنبيذ يجعلنا نشعر بأننا أصغر في السنّ وأقوى. حتى العيون هي الأخرى تفتّحت، ولاقت الرّوح انسجامها التام، وشعرت بأنني أخيراً لقيتُ قدري الحقيقي، وبأنني أخيراً أعيش حياتي.

يا لتلك الأمسيات المجيدة، وذلك المغيب السحري! لنا وحدنا كان كلّ ذاك البهاء. ولنا وحدنا كان الذهب ينثال ويغمر الصّحراء. كانت مضاربنا تذوب في سناه، وتتسربل به الجمال، فكان يغمر رؤوسها وأعناقها، وتغوص فيه أقدامها. وكان الذهب يلوح على أعطاف الصبية الأعراب ذوي العيون السّود، وعلى حواري الصغير الذي يلهو أمام خيمتي. يا للحوار الصغير المسكين! لقد كان شيئاً فشيئاً يفقد رونقه وشكله الرشيق ووبره الأبيض

المهفهف. لقد بدأ يكبر حجمه وراح كلّ يوم يشبه أبويه أكثر وأكثر. ولكن عينيه مع ذلك حافظتا على تعبيرهما اللطيف البريء. لقد استقلّ بنفسه ولم يعد لاصقاً بأمّه، وتوقف عن اللعب أمام خيمتي، بل التحق بقطيع الجمال الكبير الذي كان يجول ويرعى على هواه. قريباً سيصبح واحداً من هذا القطيع. إلى اللقاء يا حواري الصغير، إلى اللقاء!

تحرّكنا بمسير بطيء صوب جهة الجنوب الغربي، ودخلنا صحراء «الوديان» El Wadin. في الأيام القليلة الماضية، قطعنا صحاري مظلمة، تتناثر فيها الجلاميد السّود البرّاقة والصخور في كل مكان. اعتقدت أنها صخور بركانية، ولكن الشيخ سلطان شرح لي بأنها صخور رملية، وقد أصبحت سوداء من شدّة الحرارة. وفجأة تحوّلت تلك الصّحراء السوداء إلى منطقة من الحجر الكلسي الأبيض. لم يكن ثمّة أية بقعة من الخضرة، وكما كانت الأرض مسبقاً مغطاة بالأحجار الداكنة البرّاقة، فهي الآن طافحة بملايين كسر الصوّان اللمّاع. أعطى ذلك انطباعاً غريباً: فهذه المنطقة القاحلة الجرداء، بتلك الملايين من الصخور والحجارة المنتشرة في كل مكان، وكأن السماء أمطرت أحجاراً ذات يوم.

ورغم أنّ كلّ شيء يبدو بغير معالم، ومهجوراً ومترامياً، فإنّ البدو يطلقون أسماء على كل التلال الصغيرة التي تلوح، إذ أنها الدّليل الهادي خلال النهار كما هي النجوم في الليل.

قمنا باجتياز واديين صغيرين: وادي «الفهر»[1] Wadi El Fuhr ووادي «هندرة»[2] Wadi Handra، حيث رأينا بعض الخضرة الهزيلة وبضعة أشجار، من نوع الإثل والسّنط الصغير، بدت هزيلة وقديمة، وبعض أجمات الشوك. تمنينا أن نجد بعض الأرانب الصّحراوية أيضاً، ولكن كل الذي رأيناه من الحيوانات كان جرذان الرمال[3].

خلال توقفنا في تلك الليلة، هرب حوالي عشرين حصاناً من المخيم باتجاه الصحراء. كانت هناك إثارة كبيرة، إذ أنّ الظنّ البديهي في البداية اتجه بالطبع إلى وجود لصوص الخيل. فتمّ إرسال الرجال في كل اتجاه، ورغم أنّ سطح الأرض كان وعراً ومليئاً بالأحجار

---

(1) هكذا يرد الاسم في الأصل بالإنكليزية، ولعل الصّواب: وادي الفجر، انظر كتاب الرحّالة الإيطالي كارلو غوارماني «نجد الشمالي»، ص 122.

(2) علينا أن نشكك في هذه التسميات كما ترد بالإنكليزية، ومن الصعب العثور عليها حتى في خرائط 1،000،000/1.

(3) تعرف باليرابيع، وفي لهجة البدو: الجرابيع.

التي لم تترك أثراً أو علامة للاقتفاء، فقد تمكنوا من العثور عليها وإعادتها. لم يكن هناك من سارق، بل قد ركضت الجياد بمفردها نحو الصّحراء لتنعم بشيء من الحرية.

وفيما كان الرجال خارجاً يبحثون، ذهب الشيخ سلطان لاستشارة عارفة القبيلة ورؤية ما إذا كانت الجياد ستعود. إنّ البدو يؤمنون بالفأل إلى حدّ كبير، وهم يستشيرون طالعهم قبل المغامرة بأي شيء. ولديهم في ذلك طريقة بسيطة، فلقد شكّل الشيوخ دائرة صغيرة دخل الشيخ سلطان وسطها. وراح كلّ منهم يلتقط عشوائياً بضعة حصوات، كان سلطان قد جمعها. ثمّ يقوم بنقفها في الهواء واحدة بعد الأخرى، والشيوخ يقومون بعدّها. فإذا كان رقم الأخيرة مفرداً يكون الفأل حسناً، وإذا كان مزدوجاً يكون مشؤوماً. وفي كل مرّة قبل الخروج للصّيد، وقبل اتخاذ قرار إلى أيّ بئر نقصد، وفي كل مسألة كبيرة كانت أم صغيرة، كانوا يستبينون طالعهم.

بعد قطع أميال من البادية الصوّانيّة، وصلنا إلى آبار «المبهرة»[1] ونُصبت خيمنا في كل مكان هناك، حول البئر. قيل إن مياه ذلك البئر صحّية للغاية، وتشفي من الأمراض، ولكن لون ماء البئر كان أحمر ومذاقه ورائحته كانا كالكبريت. لاحظت حول الآبار بضعة مئات من القبور، فسألت الشيخ سلطان عن سرّ ذلك، فقال بأنّ من المحتمل بأن أفراد قافلة صغيرة قد يكونوا قتلوا بأسرهم على أيدي قطاع الطرق، حيث أنّ هناك عصابة من هؤلاء لا تنتمي إلى أيّة قبيلة، وأن عملهم الوحيد هو المكوث قرب الآبار للإيقاع بالمسافرين الذين يسيرون ضمن قوّة مرافقة صغيرة، أو قافلة صغيرة، فينهبونها ويقتلون الرجال[2]. وقال إنّ الينابيع مناطق خطرة من حيث البقاء عندها مطولاً، إذ أنها تعدّ مثاراً للنزاعات.

كانت الينابيع وأراضي «المبهرة» بمثابة ديرة لقبيلة «الرّوَلة»[3]، ولم يكن باستطاعة أيّة قبيلة الاقتراب للرعي أو الاستقاء دون القيام بأي ترتيب مع الشيخ سلطان، على نقيض الحال في أرض لا يمتلكها أحد، فعلى الأرجح تحصل بعض المعارك، وهناك سوف نمكث وقتاً أطول.

---

(1) علينا أن نشكك في هذه التسميات كما ترد بالإنكليزية، ومن الصعب العثور عليها حتى في خرائط 1،000،000/1.

(2) هذا صحيح، وقد وقع مثل ذلك للرحّالة آن بلنت في أطراف صحراء النّفود.

(3) بل الولد علي.

بعد الظهر، ذهبتُ في نزهة مع الدكتور خليل والشيخ سلطان. لأميال وأميال، كانت المساحات الخضراء لا تزال غنية، وللمرة الأولى رأيت أزهاراً أوروبية من أنواع الأقاحي وشقائق النُّعمان. ولمرتين اثنتين مرّ بنا قطيع كبير من الغزلان، وراحت تتقافز بين سوق الأعشاب الطويلة بعض الأرانب الصّحراء، وأشكالها في هذا الجزء من المنطقة يختلف عمّا تجده في البراري، أي الأجزاء القاحلة التي مررنا بها بالأمس.

عند المساء، تحدّثنا مطولاً داخل خيمة الشيخ سلطان عن أوروبا والعادات الأوروبية، وحتى ذلك الحين كنت أظن أن الشيخ سلطان كان معجباً بأسلوب حياتنا ويغبطنا في قرارة نفسه، على اعتبار أنه كان متشوقاً لسماع كلّ ما أمكنه عن عاداتنا، ولم يكن أبداً يملّ من الاستماع إلي حول أساليب الحياة الأوروبيّة. ولكنني بصراحة فوجئتُ كثيراً بمعرفة أنه كان يشفق علينا بدلاً من الإعجاب بنا.

من حيث المبدأ، كنّا عندما نجتمع كلنا في بيت شعر الشيخ سلطان للحديث، كنا نجلس أنا والأخير يواجه بعضنا الآخر، فيما يتجمع الشيوخ حولنا، وكنت أتحدث إلى الشيخ سلطان من خلال ترجماني وذلك لسببين: الأول، لأنه من الأفضل عند التحدث مع شخص مهم، التحدث إليه من خلال مترجم. والسبب الثاني، أنه في هذه الأمسيات كانت اللغة المستعملة على مستوى رفيع من الأناقة والفصاحة، وكانت تزدان بالمقارنات البديعيّة ويصاحبها وصف منمّق رفيع، مما جعل من المتعذّر علي في بعض الأحيان فهم الحديث، فضلاً عن عجزي عن الإجابة بالكلمات ذاتها. كان الحديث دوماً يبدأ بحمد الله، وينتهي به، ثمّ كانت تتوالى الدعوات الصّالحة للمرء ولعائلته وبلده، وملكه وشعبه، فيبدأ بها الحديث ويختتم. كانت التشابيه التي تحتوي أنواعاً مختلفة من الأزهار والطيور لتبدو سخيفة نوعاً ما، لولا أنّ الحديث بأسره كان يدور على هذا النّحو البلاغي المنمّق. وهم لم يتحدثوا بهذه الطريقة دائماً، إلاّ في تلك الأمسيات التي كنا نتجمّع فيها بعد العشاء في بيت الشيخ سلطان. كان الحديث يُعتبر فناً من الفنون ويرافقه أحياناً عزف على الرّبابة.

ذلك المساء، كانت أحاديثنا شيقة للغاية لدرجة أنني توقفت عن استعمال ترجماني بل تحدّثت مباشرة إلى الشيخ سلطان، فكانت الإجابات سريعة ومباشرة. تحدّثنا عن أوروبا، وقد اعترف الشيخ سلطان بأن المدن الأوروبية قد تكون أكبر وأجمل من مدن

جزيرة العرب، كما وأننا تعلمنا ودرسنا أكثر من العرب. «ولكن ما فائدة كل ذلك؟ كيف يمكن لكل صناعتكم ومعرفتكم أن تساعدكم؟ هل تساعدكم على جعل أعماركم أطول من أعمارنا؟ هل تعطيكم صحة أفضل؟ أم أجساداً أجمل؟ هل أنتم أعزّ شأناً.. أكثر ايماناً.. وأكثر سعادة منا؟».

«ولكن رجالنا لا يقضون وقتهم يحلمون، يدخّنون ويتجوّلون كما تفعلون. بل إنهم يدرسون بجدّ، ويعملون بجهد حثيث، ولقد بنوا الحضارة وكلّ الصّناعات العظيمة بعملهم».

«وماذا يعني ذلك؟ هل هم خائفون من هذه الحياة لدرجة أنهم يخشون من الحلم والتجوال؟ بل ينبغي لهم التماس ما يلهيهم عن أفكارهم بقضاء الوقت في العمل والدّراسة؟.. كل هذه الحاجة الملحّة لقتل الوقت والهرب من أفكارهم!.. حتماً أن حياتهم رديئة!».

«ولكن ما هي آراؤك حول عاداتنا، وأخلاقنا وديننا؟».

«لا أملك رأياً مهماً يخصّ الديانة المسيحية. وبالنسبة للأخلاق، فأنتم الأوروپيون قد سبقتمونا كثيراً بالجرائم. وبالنسبة للصدق، لماذا يحاول البائع الأوروپي خداعنا في كل مرة؟ وبالنسبة للمبادئ، فصحيح بأننا نتزوج عدّة مرات، ولكنهن جميعهن عائلاتنا. أما أنتم فتتزوجون مرّة واحدة، لكنكم أيضاً تأخذون امرأة رجل آخر، وأية امرأة أخرى.. وهذا شيء سيء للغاية».

«ولكنك على أيّ حال تعجب دائماً بجميع تلك الأغراض المصنوعة في أوروپا، التي تحرص دوماً على اقتنائها!».

«كلا، لا أفعل! فماذا يأتي منها غير الضرر؟ كل تلك الأغراض ليست سوى أشياء غير ضروريّة.. مثل المظلة التي يتوارى المرء تحتها من المطر! والقفاز الذي يحمي به يديه من الوسخ! العصا التي يتعكّز بها.. السكاكين والأشواك والملاعق للأكل!.. لماذا كل تلك الأشياء غير المريحة؟ الحياة أصبحت تافهة جداً».

«وما هذا الذوق السيء في اختيار اللباس! وما أقبح ما يزيّنون به أنفسهم! وكيف يمشون كالألعاب الخشبيّة!.. وما هي تلك الطريقة السّخيفة لإلقاء التحية؟ ووجوههم

تتغير وتكشّر كالقرود! ودائماً تراهم يأكلون، ويشربون، ويصيحون!».

«في النهاية، كل شيء في هذه الحياة زائل. كلنا نموت كما قُدّر لنا، ولكننا نعرف على الأقل بأن الله عزّ وجلّ لا يترك عباده الصّالحين!».

* * *

الفصل الثامن
معارك وولائم

غادرنا صحراء «الوديان»، بالرغم من أننا صادفنا العديد من الوديان التي فيها ما يكفي القافلة بأسرها بالمياه التي كانت تكفي للبقاء أسابيع. وكنا كلّما تقدمنا جنوباً ازداد الجفاف، ودخلنا الآن صحراء صخريّة مليئة بالحصباء، تقع إلى الشرق من وادي السّرحان. وكان الدكتور خليل قد ذهب مع الشيخ سلطان للبحث عن النعامات، التي وجدا أثراً لبيضها، ولكنهما عادا دون أية نتيجة.

وفي اليومين الأخرين عَمّت فوضى من جلاميد صخر الغرانيت الذي أحاط بنا من كل جهة، وكأن أيدي الآلهة القديمة قد ألقت به على هناك بسخط أو بلهو. وفجاة تحوّلت الأرض مجدداً إلى صحراء مستوية ذات رمال حمراء ناعمة. قرّرنا البقاء هنا للاستراحة بضعة أيام قبل الدخول إلى الصحراء المملّة.

كان هناك ما يكفي من الطعام للجمال، لأن أرض المكان الذي توقفنا فيها كانت مليئة بشجيرات «الغَضا» ghada و«النّصي» kunsi وهو نوع من العشب الطويل. أضحى الحرّ الآن خلال النهار شديداً، لدرجة أننا لم نغادر الخيام إلا قليلاً. أمضينا الوقت متمدّدين ورحنا نحتسي القهوة القويّة أو نشرب اللبن[1] (الحليب الخاثر)، أو نروي القصص أو نستمع إليها، وأحياناً نتمدّد صامتين ساعات ونحلم.

أحياناً كان يقام نوع من المحاكم، فيأتي الرجال مصطحبين معهم بعض المدانين بجرائم صغيرة، او يأتون متخاصمين فيما بينهم فيكون القاضي الشيخ سلطان، فهو من يحكم وهو من يعاقب. أحياناً يأتي رواة الأخبار، وهم عرب يتنقلون من بين القبائل، فينقلون لنا أخبار

(1) ترد العبارة في الكتاب: beben وهذا دليل على أنّ الكثير من الأسماء ترد مغلوطة في النص.

الغزوات والحروب الواقعة على القبائل الأخرى، أو بعض المعارك بين الأتراك والبدو[1]. وكانوا يُستقبلون بحرارة، وتُحضّر لهم الولائم.

عند المساء كنّا نتنزه على ظهور الخيل، أو نعقد السّباق. وبعد المغيب كنّا نتناول سوى وجبتنا الأولى، إذ كنا نقضي نهارنا بأكمله دون أن نأكل شيئاً غير شرب القهوة أو اللبن والخبز، وحليب النوق مع الخبز عند الفجر. أمّا وجبة المساء فتتألف من البُرغُل المفلفل ***boorrool imfalfal***، والقمح المسلوق، ثم لبن أمّو ***laban oomo*** وهو لبن خاثر مع لحم مسلوق، أو الرّشتة ***rishta***، وهي عبارة عن عجين مقطع إلى شرائط مع عدس مغلي. وبالنسبة للخضار فقد كنا نأكل ما يمكن العثور عليه من نباتات بريّة، إحداها نبتة شوكيّة تشبه طعم الهليون، وكانت طيّبة جداً. وهم يضعون في جميع انواع الطعام حبات الصنوبر ***snobar*** التي تعطي طعماً قوياً جداً. أما بالنسبة للحلويات، فقد كانت هلاماً من النشاء المحلول والسكر، أو من النشاء والحليب والسّكر تغلى معاً وتصنع منها أعواد طويلة. ومن وقت لآخر، كانت قائمة الطعام تختلف قليلاً، عندما تسنح فرصة اصطياد بعض طيور الدُّرّج أو السّمّان، أو الغزلان.

كنت الآن قد تعلّمت بإجادة تامة الأكل بأصابعي، وأقرّ بأنني صرت أفضّل مذاق الطعام عندما أتناوله بهذه الطريقة. كنا نأكل مع الطعام قطعاً من الخبز المدوّر الكبير المتناهي الرقّة، فكنا نلفّ القطعة من هذا الخبز بشكل يشبه الملعقة ونغرف الطعام به. وهذا ما يفيد للحيلولة دون تلويث الأصابع بالدّسم على الإطلاق. قبل كل وجبة طعام وبعدها كانت يُحضر الماء في طاسات ذهبية، لكي نغسل أيدينا ووجوهنا، وكان ذلك شيئاً من الرّفاهية في صحراء يعزّ بها الماء.

أثناء الليل، كنّا نتفرّج على الغناء والرّقص حتّى وقت متأخر، ونتجمّع حول النار، التي تُزكى بالأعشاب والحطب ذوات الرائحة العطرة، ونتداول أخبارنا ومغامراتنا، وقد بدأتُ شيئاً فشيئاً بإطلاق مخيّلة الشيخ سلطان بإخباره قصصاً رائعة عن «الرّبع الخالي» Ruba–el–Kali، فأخبرته عن إمكانية وجود سلالة للهجن هناك لا مثيل لقوتها وسرعتها في

(1) هذه ملاحظة مهمّة جداً، ولو أنها قد تكون مضلّلة. فقد يخيّل للقارئ الذ يقرأ الكتاب مغفلاً من التواريخ أن رحلة الكونتيسة إنما كانت إبّان الثورة العربيّة الكبرى بأواخر الحرب العالمية الأولى (1916–1918)، لكن هذا لا يستقيم لأن السفر آنذاك كان مستحيلاً، وخاصة بالنسبة لامرأة تحمل الجنسية البريطانية. والواقع أنها قامت برحلتها في سنة 1914، وذكر المعارك بين الأتراك والبدو لا يعدو المناوشات المعهودة دوماً.

جزيرة العرب، قادرة على قطع المسافات الطويلة دون شرب الماء، وعن إمكانية وجود مجال كبير لصيد الطرائد، وبأننا أيضاً قد نلاقي قبيلة عربية لا يعرفها العالم بعد. فأثّر به المجهول هو الآخر، وراقته فكرة ركوب المخاطر واحتمال وجود أشياء رائعة.

كان الشيخ سلطان شاباً يافعاً[1]، ويحلم بتقفي أخبار أسلافه، كما كان صيّاداً بارعاً، ولقد شعرت بأنني فزت بنصف موافقته لتحقيق مخططي. أما رجاله فلم يتأثروا بتلك السّرعة، بل ظلوا متشككين في الأمر. ولكن ذلك لم يهمّني، طالما أنني ظفرتُ بموافقة سلطان المبدئية، فهم سيتبعونه أينما ذهبنا!

بعد مضيّ يومين، تركنا مخيمنا لنكمل الرحلة مجدداً... مارّين بقفار موحشة واحدة بعد أخرى... مستمعين إلى صوت السكون... محاولين التقاط شيء ما يرمز إلى الحياة... ربما تغريد عصفور، أو طنين ذبابة. ولكننا لم نظفر بشيء، ولم يظهر أمامنا أيّ شيء حيّ. بدت القفار الشاسعة حولنا لا نهاية لها، فكان الواحد منا يتوق إلى التوغّل في القفار أكثر فأكثر، لكي يستمتع بإحساسه بالفراغ الذي لا نهاية له.

هذا المشهد ذاته لو كان في أوروبا لبدا موحشاً لأبعد حدّ: فلكان هذا الهزال الأجرد تحت السّماء الرّماديّة سبّب كآبة لا تحتمل لكلّ من العين والنفس. أمّا هنا، فإنّ الصّخور العارية والرّمال المتوهجة التي تسطع عليها الشمس بكل حدّة، تعكس النور متلألئاً وموّاراً، وتتغاير إلى ألوان جميلة من البنفسجي الفاتح، والوردي، والرّمادي، بحيث أنّ الإنسان لا يشعر بنقص خضرة الأشجار والأزهار، بل إنّ لونها كان ليفسد تناغم هذه السّمفونيّة الفضيّة والذهبيّة.

كان الهواء جافاً وصافياً للغاية، ومنعشاً لأبعد حدّ، فلا يشعر المرء بأي تعب أو يعاني من ذلك الإنهاك الذي يسببه الحرّ الشديد في الجو الرّطب عندما يكون البارومتر منخفضاً. بل يشعر المرء بنفسه تام النشاط، وتبقى أعصابه متيقظة، فيتمكن من تحمّل المسيرات الطويلة في الشمس السّاطعة، التي التي تؤدّي إلى الهذيان والحمّى في طقس أكثر رطوبة.

كنا دوماً نسبق قافلتنا بالمسير، فكانت هجننا تبدو وكأنها تطير، وكنا نقطع ستين ميلاً كل يوم. ورغم أنّ الصحراء كانت رتيبة، فإنّ معالمها كانت تتغيّر دوماً كالبحر. اجتزنا كثباناً

---

(1) طالما أن رحلة دوروتيا كانت في عام 1914، فمعنى ذلك أن الشيخ سلطان الطيّار كان ابن تسعة عشر عاماً فقط، لا في الثلاثين كما ذكرت آنفاً.

متماوجة من الرمال، يبلغ ارتفاع بعضها خمسمئة قدم، لنعود مجدداً إلى الصّحراء الحصويّة، التي تتحول فجاة إلى رمل أحمر ناعم. وراح تلاعب أشعة الشمس عليه يعطيه ألواناً تتراوح بين كل الأطياف، بينما راح الهواء يهزأ بنا ويجعلنا نرى سراب بحيرات وواحات.

كنا الآن قد دخلنا منطقة الصخور الرملية في الصحراء الفسيحة المضجرة. كانت المئات منها، إلى أبعد ما تبلغه العين، تنتصب كأصابع عملاقة، أو تؤلف سلسلة. ويبلغ ارتفاع بعض الذرى أربعة آلاف قدماً. وكانت هذه الصّخور رهيبة بقحطها البالغ. كان جمالها من نوع الجمال الأزلي للمناطق التي لا يمسّها تغيير، فلا وجود لأية حقول أو غابات، لا شيء سوى الجمال والبهاء العذري الذي بقي على حاله منذ بداية هذا الكون. في هذه المنطقة، التي ذكّرتني بعصر قيام البشريّة البدائيّة، نصبت خيامنا، ولدى مقارنتها بالذرى السّامقة التي تحيط بنا، بدت وكأنها مساكن الأقزام.



«يا لتلك الأمسيات المجيدة، وذلك المغيب السحري!»

كان لون الصخور رئعاً: أحمر زاهٍ يتبدّل إلى أزرق أو بنفسجي فاتح في أديم الأفق. ومغيب الشمس في الليل! أمّا الجبال فتسربلت بلون وردي شاحب، وبدا هذا اللون الوردي غير حقيقي، وكأنه مضاء من داخله. ثم فجأة تغيّر ألوانها إلى جميع ظلال البنفسجي الفاتح ثم إلى الرمادي اللؤلؤي[1]، وظلّت تعكس النّور عندما حلّت العتمة، وأنارت النجوم حلكة الليل. وهي لم تظهر فرادى، بل كدفقة واحدة مباغتة من البريق. وتدريجياً راح الضوء يخبو من الجبال ليتركها تنتصب سوداء في وجه السّماء. وفي ذلك الظلام الحالك، بدت تلك الجبال أكثر رعباً وأكثر ضخامة، وكأنها وحوش هائلة ميتة، أو ككابوس من صخر. ولكن سرعان ما أُضرمت النار في المخيم، وتصاعد لهيبها إلى السماء، حاملة معها شعوراً من الطمأنينة والأمان.

* * *

ذات يوم، جرت إثارة هائلة في المخيم. فقد وصلت أخبار بأن قبيلة شمّر، ألدّ اعداء «الرّوَلة»[2]، كانوا يخيّمون على مقربة منّا، وهم على الأرجح يخططون لمهاجمتنا. بعد بضعة دقائق رأينا سحابة من العجاج تهيج في الأفق. شعرت الأحصنة بالتوتر والإثارة، ويبدو أنها اشتمّت على الفور رائحة المعركة القادمة. واعتقد الشيخ سلطان الطيّار بأنه من الحكمة التحضير لمهاجمتهم عوضاً عن الانتظار ريثما يغيرون هم علينا.

أعطيت الأوامر، وخلال لحظات معدودة دارت في المضارب معمعة كبيرة. امتُطيت الأحصنة، وراح الرّجال يجرّبون أسلحتهم. وكلّ من كان لديه حصان مضى به يعدو، وكان الشيخ سلطان في طليعة الرّكب، يلوّح بسيفه في الهواء، بينما ارتجّ الهواء بصوت صيحة الحرب (النّخوة) تردّدها آلاف الأصوات. أمّا من لم يكن لديهم أحصنة فقد راحوا يجرون خلف ركب رفاقهم.

اقتيدت الجمال إلى قرب الخيام، أمّا النساء فقد طفقن يتحدثن بصوت عالٍ وانفعال، وتجمّعن أمام خيمة الشيخ سلطان. وأمّا أنا فقد شعرتُ بالتعاسة بسبب اضطراري للبقاء

(1) كتبت المؤلفة العبارة بالفرنسية: *gris de perle*.

(2) بل المفترض أنها تعني الولد علي، لكن على أي حال كانت عداوة شمّر للرّولة والولد علي سواء، إذ أن الأخيرتين من عنزة من ضنا مسلم.

هنا، وعدم السماح لي بالانضمام إلى المحاربين. لم أستطع تحمّل الجلوس بهدوء مع النساء لأستمع إلى أحاديثهن المنفعلة، لذا فقد رجوت محموداً البسّام بأن يرافقني إلى أقرب مكان قرب المعركة، فاعترض بشدّة على الفكرة، ولكنه وافق على مرافقتي.

بعد امتطاء الخيل لمدة نصف ساعة، سمعنا إطلاق نار عنيف على مبعدة، وتمكنا من تمييز صفوف البدو المتحاربين. رجوت محموداً البسّام الاقتراب قدر المستطاع. كانت معركة كرّ، ركض بالخيل وإطلاق نار طوال الوقت. أمّا الرّجال الذين تبعوا الرّكب على أقدامهم فقد ظلّوا بعيدين عن القتال، وبدا لي بأنهم قد أتوا للماركة في اقتناص المغانم في نهاية المعركة بدلاً من الاشتراك بها فعليّاً.

بدت المعركة برمّتها لي كلعبة حرب، تشبه ما شاهدته بنفسي عدّة مرّات. كان هناك الكثير من التلويح بالسيوف في الهواء، وإطلاق صيحات الحرب، ورفرفة العباءات وركض اليل بين الصّفوف المتقاربة، ممّا جعله مشهداً رومانسياً وجميلاً، لدرجة أنه ربما لا يؤخذ على محمل الجدّ.

استمرّت المعركة لمدة ساعتين، إلى ما بعد المغيب. وانتصرت قبيلتنا، وعادت وقد غنمت من العدو أباعر وأحصنة. ذهبت لاحقاً إلى المكان الذي دارت فيه رحى المعركة، فأدهشني وجود القليل من الجرحى والقتلى. ولم أعدّ أكثر من خمس عشرة جثة.

في تلك الأمسية أقيمت مأدبة ضخمة للمخيم كلّه، عندما كان يفترض توزيع الغنائم. وكما سمعت، فإنّ قبيلتنا قد خسرت ثلاثة رجال فقط، فيما رجعت الأحصنة تلهث وتنزف، ولكنها استمتعت بالمعركة كاستمتاع الرّجال بها. يبدو أنّ تلك الحيوانات تتمتّع بالرّوح ذاتها التي لخيّالتها.

سرعان ما أوقدت المشاعل، فأنارت كل المخيم، وقُرعت الطبول للدّعوة إلى الوليمة، فراحت أصداؤها تتردّد من الصّخور.

تجمّع الشيوخ ومرافقيّ في خيمة الشيخ سلطان، حيث جلسنا جميعنا في حلقة. فأتى حوالي عشرة عبيد حاملين حقّاً مملوءاً بالماء يمرّرونه من شخص إلى آخر ليغسلوا يدهم اليمنى فقط، لأنه لا يجوز استعمال اليد اليسرى عند الأكل، قدر الإمكان. وبعد غسل

اليدين، أحضر أحد العبيد الصنف الأول من الطعام، على طبق من النحاس الأصفر، ووضعه في وسطنا. وفي قدر فخاري كبير كانت تسبح سربة من الدّجاج المحمّر بالسّمن البنّي، وكان لكل شخص دجاجة ورغيف من الخبز.

بعد قولنا «بسم الله» *Bismillah*، قسم لي الشيخ سلطان الخبز، كوني ضيفة الشرف، وبدأت الوليمة. وجدت صعوبة بالغة بانتزاع فخذ الدجاجة دون استعمال يدي اليسرى، ودون رفعها من القدر. فشعر الشيخ سلطان بالإحراج الذي كنت فيه، فمدَّ لي يد العون وقطع لي أفضل القطع ووضعها أمامي، حتى أنه مرّة أو مرتين، كنوع من التكريم، ألقمني بعضها في فمي مباشرة!

بعد انتهائنا من الطبق الاول، أخذ العبيد القدر إلى مؤخرة الخيمة حيث كان يجلس رؤساء رجال «الدّوّار»، لكي يقوموا بإنهائه. وبعدها جلبوا لنا الطبق الثاني، وكان أيضاً يحتوي على الدّجاج المطبوخ بطريقة أخرى، بالإضافة إلى ثلاثة أطباق كبيرة من لحم الضأن. وبعد ذلك جُلب خروف كامل مشوي يسبح في دهنه. وكأنما لم يكن ذلك كافياً، فجُلب طبق آخر من الأرز مع الدجاج، المسلوق في اللبن، يتبعه طبق من القمح المسلوق مع اللحم. وهذا الصنف الأخير من الطعام كان ينبغي تكويره بلقم صغيرة ونقفه إلى الفم بأعلى الإبهام. ولقد أحرزت في ذلك خبرة كبيرة، إذ أنني ما برحت أمارسه في كلّ يوم منذ كنا في تدمُر.

بهذا الطبق الاخير، ولله الحمد، اختتم الجزء الثقيل من الوجبة، فقلنا الحمد لله *Hamdulillah* وغسلنا أيدينا مجدداً، والله يعلم كم كنا بحاجة لذلك هذه المرة!

بعد الطعام، قُدّمت الفاكهة والحلويات من مختلف الأصناف بكميّة وافرة لاختتام المأدبة، التي قدّم لنا في أثنائها أكثر من اثنتي عشرة دجاجة، وخمسة عشر رطلاً من لحم الضأن، وخروف كامل مشوي، وأصناف أخرى من اللحم لا تقلّ قدراً عن ذلك، وثمانية عشر رغيفاً. وبعد الانتهاء من تناول الوجبة، جلب أحد العبيد بعض الزجاجات، وأداة غريبة المظهر إلى الشيخ سلطان، فبدأ بنفسه بتنظيف ردائي من رائحة الطعام بصبّ كميّة وافرة من ماء الورد علي، فأغرقني به إغراقاً. ثمّ قام بإحراق بعض البخور العطري *bejoui* والمرّ *alve* في محرقة عطر *brûlé parfum* وطلب مني أن أنحني فوقه. فتغلغلت هذه

الرائحة العطريّة في أعماق ثوبي حتى تبخرت من أكمامي ورقبتي وكل أركان جسمي، حتى صرت وكأنني زجاجة عطر تحترق. وبعد انتهاء هذه العملية، جلسنا جميعاً أمام الخيمة لنحتسي قهوتنا وندخن النرجيلة nargileh، وصفّق الشيخ سلطان بيديه ليعطي الأمر بالشروع في الرقص.

كانت جوقة الرقص في الانتظار، فارتدت الرّاقصات أجمل ما لديهن من حلل، وتقلدن سلاسل الذهب والفضة والقلائد، والحلى الزجاجية الملونة تتدلّى على جباههن وآذانهن. بينما قام حوالي أربعين رجلاً، م كلّ واحد دفّ، بتشكيل نصف دائرة، قامت النساء بإقفالها بنسق مستقيم. وعند إشارة معيّنة، يبدأ الرجال بغناء نوع من الأداء الجماعي chorale بإيقاع هادئ ورتيب، وكأنهم يرتّلون، ثم تنضم إليهم النساء بأصوات مرتجفة. ثم يبدأ الرجال بالنقر على دفوفهم، ويتمايلون في كلّ مرّة حتى يكادون يبلغون الأرض. وتفعل النساء الشيء ذاته، فيغنّين بشكل كئيب وكأنهنّ يصلّين. وفجأة، يهبّ الرجال، ويرفعون دفوفهم فوق رؤوسهم، وتكتّف النساء أذرعهن على صدورهن، ويمكثن ساكنات لدقائق معدودة. بعدها، يعطي القائد الإشارة وينقر على دفّه بعنف، بينما يدخل الآخرون نقطة الذروة السريعة للرقصة. فتتمايل رؤوسهم يميناً ويساراً، ويتبعون النغمة الموسيقية، وتتأرجح أذرعهم إلى الأعلى والأسفل على إيقاع اللحن. تزايدت وتيرة الموسيقى في كل دقيقة، وازدادت الحركات إثارة وحدّة، إلى أن أعطى القائد فجأة إشارة بدفّه فتوقف الجميع في سكون تام.

بعد ذلك جاء دور رقصة انفراديّة، ففُرش بساط وجلست حوله النساء يصفقن كموسيقى مصاحبة. ثم دخلت امرأة وهي تتحرّك إلى الأمام ببطء وكأنّ قدميها مقيّدتين، فكانت تحرّك جسدها إلى الأمام بحركة متموّجة كالحيّة. ولمّا صارت في المنتصف، جثت إلى الأرض، وراحت تتمايل بجسدها إلى الأمام وإلى الخلف عدّة مرّات. ثمّ هبّت واقفة، وراحت تدور وتدور، ثم وضعت على رأسها طبقاً نحاسياً مع فنجان قهوة ممتلئ إلى حافته، ثمّ أمسكت بالطبق بيد وادة فوق رأسها، وراحت ترقص وتتوازن وتتمايل بجسدها بخفة تامة، دون أن تهرق قطرة واحدة من القهوة.

بعد هذا العرض، رقص رجال المخيّم بأسرهم متحركين عبر المضارب كلها. فشبكوا

أذرعهم وراحوا يتقدّمون بحركات متثاقلة، كأفعى عملاقة، وتبعتهم النساء بالتصفيق وبالزغاريد التي تشبه الصيحات الحادّة التي تصدرها الطيور.

وبينما كنا نشاهد الرقص، أتى عبد ليخبر الشيخ سلطان بأنّ شاعراً قد وصل من مكان ما في الصحراء. فاستُقبل بالفرح الغامر والترحيب الحارّ والمجاملات التي لا تعطى عادة سوى للشيخ. أخذه العبيد ليغتسل، ويتعطر ويرتدي عباءة فاخرة جديدة، هديّة من الشيخ سلطان، ثمّ قدّمت له وجبة طعام حافلة. وبعدها أتى إلينا. ولما استمع إلى أخبار المعركة التي دارت رحاها بين قبيلتي «الرّوَلة»[1] و«شمّر»، فقد بادر على الفور إلى صوغ الرّواية بأكملها بأسلوب شعري، مادحاً بعبارات منمّقة ومبالغة أفعال «الرّوَلة»، وذامّاً ومسفهاً أفعال أعدائهم.

نال الشاعر تصفيقاً حارّاً، وراح الرجال يرمون قربه المال والقطع النقدية على البساط الذي يقف عليه. وبعدها ألقى قصيدة *kassid* على شرف الشيخ سلطان، ممتدحاً فيها شجاعته، وفصاحته ونبله وصبره. تلتها قصيدة أخرى تشتمل قدحاً وهزءاً بالشيخ الخصم. فسُرّ سلطان بذلك كثيراً، فأمر عبده بإحضار بعض الخناجر الجميلة، وشماخين مطرزين بالذهب، وصرّة مليئة بالنقود الذهبيّة قدّمها للشاعر كجائزة على مديحه. بعد ذلك، عقد الشيوخ مجلساً كبيراً لمدح الرجال الذين أظهروا شجاعة فائقة في حومة الوغى، وتمّ توزيع الغنائم فيما بينهم.

* * *

(1) المقصود هنا الولد علي.

الفصل التاسع

دروب صحراء «الدهناء»[1]

مجدداً، تمّ نقض مضاربنا وتحميل حوائجنا، لنبدأ تجوالنا كبني إسرائيل في التيه من بئر إلى آخر. كنّا دائماً نمشي في أعماق الصحراء، بعيداً عن أي درب مطروق. لم يكن هناك أي دليل على أن إنساناً قد مرَّ من هنا. يشعر المرء بأنه صغير للغاية في هذا العالم الفسيح الأجرد، وكل الهموم الصغيرة التي كنّا نقلق بشأنها بدت سخيفة جداً أمام مشهد هذه الأرض الفسيحة التي لا نهاية لها، والتي لم تنبت فيها وردة قطّ، ولم تخطُ على أديمها قدم إنسان.

كان الحرُّ شديداً، وكان من المتعذّر جداً الكلام، ولم يمكنني غير أنّ أغطي رأسي قدر الإمكان بحجاباتي الكثيرة، وأتأرجح على متن ذلولي وأنا شبه نائمة، على وقع الخطى الرّتيبة للذلول. هذا الهدوء المطلق وانعدام مظاهر الحياة يجعل المرء يشعر بأنه الكائن الحيّ الوحيد في هذا العالم، كما يجعله يشعر بقربه الشديد من الطبيعة.



«عظام الجمل المبيضّة التي نصادفها»

(1) ترد التسمية في الكتاب بالغلط: Dalma desert والواضح أنهم عند النقل من خط المؤلفة لم يميزوا Dahna من Dalma لتشابه الحروف.

مضى علينا خمسة أيام ونحن نتابع المسيرة عبر الرّمال والوحدة دون أن نعثر على أي بئر. لذا كان علينا أن نغيّر وجهتنا لندنو من طريق القوافل. لم أجد شيئاً ينمو على أديم هذه الصّحراء الرّمليّة، ومع ذلك فإنّ الجمال تدبّرت العثور على بعض الطعام هناك. إنها حقاً حيوانات مذهلة، وقد كنتُ واثقة للغاية بأنها ستوصلني سليمة إلى «الرّبع الخالي». أنا الأخرى لم أحتج للماء إلا قليلاً جداً، لكنّي كنت قد درّبت نفسي على شرب الحدّ الأدنى من الماء أثناء إقامتي بدمشق.

حتى الآن مضت على الجمال بغير ماء مدّة سبعة أيام، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب كما قيل لي، لأنها تستطيع الصّمود من دون المياه خلال فصل الربيع لمدة حوالي ثلاثة أسابيع.

شيئاً فشيئاً، كنا نترك وراءنا أراضي الهدوء والموت، وبدأنا نرى القليل من الزهر البنفسجي الزاهي والأصفر يظهر أمامنا بخجل. وقد ترافق ذلك مع مرور الأرانب البريّة بسرعة من حين إلى آخر. بعد ظهر أحد الأيام ذهبنا للبحث عن الأبقار الوحشية التي تعيش في هذه المنطقة. فاستطعنا رصد ثلاثة منها وقتلها. وهي أكبر من الغزال بقليل، ولها قرون جميلة جداً. وعلى الأقل أدخلت هذه الأبقار بعض التغيير على نظامنا الغذائي. كان من الواضح لنا أننا عدنا مجدداً إلى الدّروب المطروقة من البشر، من خلال عثورنا على عظام الجمال المبيضّة المتناثرة هنا وهناك على أديم الصّحراء. ولقد استطاع البدو أيضاً قراءة آثار القوافل التي مرّت على الرّمال، رغم أنّ عينيّ لم تتبيّن فيها أي شيء على الإطلاق.

لاحقاً عند الظهر، صادفنا دستة من العرب ذوي المظهر الغريب مع نسائهم وأولادهم. كانوا يمتطون الحمير، وقد بانت عليهم ملامح الفقر والخجل وقد تدثّروا بجلود الغزلان. لقد عرفوا الشيخ سلطان، فذهبوا إليه لإلقاء التحية. فتمّت دعوتهم لتناول الطعام معنا، فرووا لنا قصصاً مستفيضة عن تقصّي الطرائد وقنصها في قلب الصّحراء. كانوا ينتمون إلى «الصّلَيب» وهم أُناس يشتهرون بالصّيد وبخبرتهم بالصحارى. ولكنهم كانوا خجولين جداً، وبمجرّد انتهاء الأكل سرعان اختفوا مجدداً في الظلام.

أخيراً صادفنا بئراً، ولكن لم يكن فيه مياه كافية للقافلة كلّها، فسُمح فقط للرجال والهجن بالشرب، بينما تعيّن على جمال التحميل المسكينة الانتظار ليوم آخر أو يومين. فحاول بعض العرب عصيان هذه الأوامر، فنالوا ضرباً مبرّحاً على عطفهم ممّا جعلهم

يتراجعون فوراً مع جمالهم. وفي الصباح الباكر، تمّ نقض مضاربنا وتحميلها من جديد لبدء الرحلة، هذه المرّة برفقة قافلتنا. مشينا بمسيرات بطيئة باتجاه الجنوب بغرب، متوجهين صوب وادي «المستوي»[1]، حيث كان ينبغي أن نجد آباراً كافية لترتوي منها كل القافلة وتستريح.

في نواحي المساء، مررنا بقرب مخيّم صغير للشرارات، فتوقفنا خيمنا بالقرب منهم. وهؤلاء أصدقاء لقبيلة «الرّوَلة»، وبعد الوليمة ذهبنا جميعاً لمقابلة الشيخ. فأبدوا مفاجأة كبيرة لدى رؤيتي ولكنهم لم يستطيعوا في البدء التمييز ما إذا كنتُ رجلاً أو امرأة. إذ كنتُ أرتدي الآن ثياب البدو، وثوباً طويلاً منسدلاً، بالإضافة إلى الحجاب الذي أخفى كل ملامحي، فاستطعت فهم لماذا لم يستطيعوا التمييز بأنني امرأة.

أخبرونا بأنّ هناك اضطراباً كبيراً في كل مكان، وبأنه قد جرت في حائل تظاهرات حاشدة، وبأنّ القتال يعمّ المنطقة. لم أكترث كثيراً بكلامهم، لكن الشيخ سلطاناً بدا متأثراً للغاية تجاهه. فقط تولاني الأسى بأننا الآن على وشك مبارحة دربنا المنعزل وصحرائنا العذراء، وبتنا ندنو من الدروب التي يطرقها البشر. لم يعد في وسعنا الآن أن نعتبر أنفسنا المخلوقات الوحيدة في كون الربّ الرائع!

أراد الشيخ سلطان التوجه إلى بلدة صغيرة، هي «زلفي» قرب «بريدة»، لأنه رغب باستبدال بعض الجمال بالأحصنة هناك. لقد أصبحت جبانة، وصرت أخاف الالتقاء بالناس مجدداً، كهؤلاء العرب المتعصبين من الجنوب. إن وجودي بين أصدقائي البدو أشعرني بالأمان، فقد كانو حقاً قوماً شرفاء ذوي أخلاق فروسيّة كما توقعتهم أن يكونوا. وإنّ معاييرهم في الشرف وحدها هي التي مكّنتني كامرأة من العيش وحيدة بين الرجال هذه المدّة الطويلة كلها. فلقد عشت بينهم أكثر من شهرين، ولقيت منهم دوماً احتراماً لا يوصف.

كنّا قد وصلنا إلى نصف الطريق، وبعد رحلة شهرين إضافيين، ينبغي أن نصل إلى الحدود الشمالية للربع الخالي. وحتى الآن يبلغ ما اجتزناه مسافة حوالي تع مئة ميل. وبما أنني بتّ أدرك بأنّ الشيخ سلطان عازم على القيام بالمغامرة معي، فقد بدت شيئاً يسيراً، ولا تختلف كثيراً ولا تزيد مشقة عمّا لقيناه في اجتياز الصّحارى التي قطعناها سلفاً.

---

(1) ترد التسمية في الكتاب بالغلط: Wadi–al–Umstarri والصواب ما كتبناه.



«مخيّم صغير لقبيلة الشرارات»

آه أيها «الربع الخالي» كم أغريتني! كيف ناديتني! لكنتُ جعلتك مملكتي لو استطعتُ غزوك. شعرت بأنني لن أستطيع أبداً الرجوع إلى حياة أوروبا وعاداتها، فلقد سحرني الهواء النقي، والمساحة الشاسعة التي لا يحدّها حدّ، وجمال الصحراء العارية. لن أتمكن أبداً من نسيان ضوء المئات من نيران المضارب، مع الأشباح المعتمة النتحلّقة حولها، والأغاني الغريبة الحزينة التي يتردّد صداها عبر السكون القاتل. لقد سَرَت وثنيّة الصحراء وغموضها في عروقي ودمي، وشعرت بأنها امتلكتني للأبد.

ما أجمل ذاك الانسجام والشاعريّة في حركة قافلتنا، بتلك الخطى الوئيدة المتزنة الي تمشي بها الجمال.. الرجال بمحيّاهم الصّارم المهيب، والنساء بخطواتهن الليّنة وثيابهن التقليديّة وأوشحتهن السّارحة فوق الرمال.. والأطفال الموضوعون على ظهور الجمال، بكل رشاقة وكل لطف وصبغة بريّة.. المسير في العذرية المنعشة لبكرة الصباح، وإمضاء حرّ النهار، ورؤية الجو يتراوح ما بين الفضي والذهبي.. الاستسلام للأحلام أثناء التأرجح بخفّة إلى الأمام والخلف على وقع خطو الجمل، ومشاهدة روعة المغيب عندما يلقي بسحره على العالم أجمع.

أوصلتنا مسيرة يوم آخر إلى غدران «أم الفهود» حيث كنا نزمع البقاء ثلاثة أيام. أُقيم هناك حفل زفاف في الدّوّار، فانشغلت المضارب كلّها ودبّت فيها الحركة للتحضير للحفل. وعند الساعة الرابعة مرّ عبر المضارب بدويّ يقرع طبلاً كبيراً، لمناداتنا للحضور لرؤية العروس وهي تؤخذ إلى خيمة عريسها. وقام آل[1] العريس بدعوة جميع الأحياء المجاورة لحضور الزفاف، فامتطى بضعة مئات من البدو أحصنتهم وداروا عبر المضارب مطلقين رصاص بواريدهم في الهواء، وهم يغنّون ويصيحون.

ذهبت برفقة الشيخ سلطان ومحمود البسّام على ظهر الحصان إلى خيمة العروس، حيث كانت جالسة تنتظرنا لنأتي ونتأملها. كانت ترتدي ثوباً فيروزياً طويلاً وحجاباً زهري اللون يغطي وجهها، ووضعت فوق ثوبها شالاً تدلّت منه الحلى الفضية. وكانت مضمّخة

---

(1) تعمد المؤلفة هنا إلى استخدام عبارة adnar بمعنى: الآل والأهل والرّبع. وقد ترجمنا العبارة في النص بالدّوّار.. فلعلها هنا تكون محرفة عن الضنا؟ لا ريب أن استقراء معاني هذه العبارات في الكتاب بحاجة إلى قدر وافٍ من الحدس.

بالعطر القوي، وزُيّنت يداها بالحنّة[1] ونُقشت بزخارف عربيّة بالأزرق والأحمر. وكان الجمل الذي ستمتطيه لتذهب إلى خيمة زوجها مزيّناً بشكل احتفالي. كان عاتقه مجللاً بدثار أرجواني تتدلّى منه حلى إلى الأرض. وكان رأسه وعنقه محاطين بأطواق من الخرز الملون والأجراس الفضية والذهبية، والأشرطة الزاهية المتدلّية. وكان هناك مركب مذهب مثبتاً على كاهل البعير، يكسوه ريش النَّعام الأسود والأبيض.

قامت أخدان العروس بمساعدتها للصعود إلى المركب، ورافقتها جميع صديقاتها وأقاربها، الذين كانوا على ظهور أحصنتهم يطلقون بنادقهم مراراً وتكراراً، فتقدّمت العروس ببطء نحو خيمة العريس. وفي هذه الخيمة جهزت لها وسادة طويلة مربّعة، زُيّنت بالورود وأغصان الأشجار. وبين الصيحات والتمنيات بالتوفيق والسعادة، نزلت العروس عن الجمل لتجلس وتشاهد الحفل والمأدبة التي أُقيمت للاحتفال بها. تجمّعت كلّ النساء حولها وبدأن بالرقص على أنغام المزامير والدفوف. وفُرشت بينهنّ عباءة ليرمي عليها الضيوف بعض المال كهدية للعروس. وكان هناك بدويّ ينادي بمقدار المبلغ المدفوع، ويقوم تلقائياً بإسداء الشكر على الهديّة والتبريكات.

في تلك الأثناء، تجمّع الرجال حيث يمارسون هوايتهم المفضلة. فإلى الجهة اليمنى من خيمتنا تجمّعوا في ستة صفوف طويلة، وتركوا أمامهم فسحة خالية، تحجبها من طرفيها حواجز. وعند صدور إشارة محدّدة بدأت أحصنتهم تخبّ خبّاً وئيداً، وذيولها الطويلة تجرّ على الرّمل، بينما كانت عباءات خيّالتها تنساب في الرّيح، وأسلحتهم تلتمع في ضوء الشمس.

امتطى الشيخ سلطان حصانه في الوسط، ليكون قائدهم. وكان حصانه الأجمل على الإطلاق، بسرجه ولجاماته الرّائعة. كان من الصّعب إبقاء خيولهم على خطوة الخبب الوئيدة، لشدّة تهيّجها وانفعالها، وكان بإمكان الرائي إدراك مدى الصّعوبة التي لاقاها خيّالتها في كبحها. وعندما اقتربوا من خيمتنا قذف الشيخ سلطان بارودته في الهواء فجنّت الخيل وطاش صوابها. ثمّ جعلها الشيخ تصطفّ في نسق أفقي، فحذا البدو حذوه، وانطلقوا يجرون كالبارود. فبلغوا نهاية الفسحة المفتوحة، حيث كان المكان موصداً بحواجز. وقاموا بهجوم، ليتوقفوا فجأة على مسافة قصيرة من الحشد، وعادوا أدراجهم وسط سحابات العجاج، والجياد تقطر عرقاً وترتجف من التعب.

(1) ترد العبارة بالإنكليزية في الأصل: ebba وهذا يدلّ مجدداً على سوء النقل من خط المؤلفة عند طباعة الكتاب.



«فجنّت الخيل وطاش صوابها»

بعد ذلك، كان هناك عرض بهلواني بين رجلين بدويين على حصانيهما. فكان أحدهما يعدو بسرعة كبيرة، ويقف على السّرج ويرمي حطّته في الهواء ليلتقطها مجدداً، ثمّ يركب مجدداً ويقف على السّرج برأسه ورجلاه إلى الأعلى. ثم يعود إلى وضعه الطبيعي، ويستدير إلى الخلف بشكل خاطف، بحيث تكون قدماه على رأس الحصان ورأسه قرب ذيله، وكأنه يطلق النار على عدو يلحق به. وكل ذلك يجري أثناء الجريان السّريع للحصان.

وبعد ذلك، راح الرّجلان يطلقان نار بارودتيهما، ويركبان بأصعب الوضعيات تصوّراً، وهما الآن يتعلقان برجل واحدة في الرّكاب وينجرّان على الأرض. ثم يركبان حصانيهما بالمقلوب، وذراعاهما يحيطان برأس الحصان ويستخدمان ساقيهما وقدميهما لإطلاق النار من البارودة.

عند المغيب انتهت الألعاب، وفُرشت الحصائر على الأرض، وبدأ الإعداد للوليمة الكبرى. تتالت الأطباق الكبيرة المدوّرة من الدجاج المشوي، ولحم الضأن و«الكزكز» الواحدة تلو الأخرى، فدامت هذه المأدبة حتى قرابة منتصف الليل.

في اليوم التالي، ترتدي العروس ثوبها الأبيض، واضعةً حجاباً أزرق، ويرافقها أقاربها وأخدانها لتذهب لزيارة الدوّار وتتلقّى المزيد من هدايا الزواج. وبعد ذلك تعود تخلع ثوب زفافها الأبيض لترتدي لباسها اليومي وتقوم بأعمالها اليومية من حلب النّوق ومَخض السّمن، وتتحمّل مشاق الحياة اليوميّة.

كان بعض أفراد «الصّلَيب» قد أتوا لينصبوا مخيّمهم بالقرب منّا، وأخبرونا عن التوتر الشديد الحاصل في كل مكان، واستناداً إلى ذلك قرّر الشيخ سلطان هدّ المضارب والرحيل عند الصباح الباكر والاتجاه صوب «زلفي».

لم أستطع النوم في تلك الليلة، فقد راودني كابوس[1]، استيقظتُ على أثره لأخرج من خيمتي، ولكن حتى هناك تهيأت لي أشكال وأجرام غريبة.. فقد بدت لي الجمال كوحوش ضخمة وبعضها كان يبكي خلال نومه بصوت كئيب للغاية ومخيف، وراح السّكون يرجع أصداءً كانت أكثر غموضاً وحزناً. وبدت آلاف الخيام غارقة في السواد،وميتة، فتاقت

(1) تكتب العبارة بالفرنسية: *cauchemar*.

نفسي الى لهيب النار الموقدة وإلى أصوات الناس، لدرء الأسى والثقل الذي خيّم على الدنيا في هذه الليلة. فرحّب قلبي بصوت الطبول التي قُرعت لتنبيه الرجال للاستعداد. عندها فقط عُدت إلى خيمتي لأنال من جديد قسطاً من النوم.

بدّدت أشعة الشمس وبهاؤها الوساوس السّخيفة التي انتابتني في الليل. حظينا بصيد موفق، وكنا نركب جميعاً خيولنا ونغير سوياً، فاصطدنا بعضاً من الأرانب البرّية والغزلان. ورحت أستمع إلى تغريد العصافير من جديد، وكانت الأرض مغطاة بالأجمات والزهور. تبعنا في مسيرتنا مهاد وادي «المستوي»، وبعد إقفار صحراء «الدهناء»، بدا لنا الوادي كواحة غنّاء.



المسيرة عبر الصحراء

وصلت قافلتنا أخيراً. وناخت جمالنا أمامنا، فامتطينا مجدداً ظهورها العالية، وعلى متونها إلى الصحراء، تاركين خلفنا مهاد وادي «المستوي» المطرّز بالزهور. تحركنا صوب جهة الجنوب بشرقي عبر صحراء «الدهناء». وفي المساء، توقفنا لتناول وجبتنا ولنأخذ قسطاً من الراحة لمدة ساعة فقط، لنواصل رحلتنا لاحقاً خلال الليلة المضاءة بالنجوم. فشرع الرجال بترداد أغانيهم الحزينة المليئة بالنّدب، وتابعنا طريقنا وكأننا في حالة حلم، تذوب أرواحنا مع معانيها الغامضة. لم أشعر بالتعب، ولم تنتبني الكوابيس كما في الليلة السابقة. وبدت لي السماء صافية وجميلة بمئات الشهب المتساقطة.

* * *

في الثالث من سبتمبر، قُبيل الفجر، وصلنا إلى موضع مأهول هو «زلفي». تتألف هذه البلدة من العديد من المنازل الواطئة المربعة، التي بُنيت بالطوِب، وفي الوسط مسجد. توقفنا على مقربة منه، وسرعان ما حضر عدد من العرب المتشدّدين ذوي الملامح القاسية وبدأوا يرمقوننا بفضول غير ودود. فجأة علا صوت المؤذن *muezzin*، من أعلى برج المئذنة، فاختفى الجميع. ولكنهم بعد وقت غير طويل عادوا مجدداً، وسرعان ما امتلأت خيمة الشيخ سلطان بشيوخ زلفي وأعيانها مع بعض شيوخ البدو الذين كانوا أتوا بغرض التجارة.

ذلك المساء، استقبلنا حاكم «زلفي» والشيوخ تلك القرية كضيوف. فرتبنا الرقص والألعاب الحربيّة كما في كلّ مرّة. ولكن لم يكن يلوح هناك أيّ بِشر أو انفراج، بل كان الجميع غارقين في التفكير، والوجوم يخيّم على المكان، ولم يتمّ تبادل الكثير من الأحاديث. كم تمنّيت من كل قلبي بأن يقوم الشيخ سلطان بإنهاء مشاغله هناك بسرعة لنتمكن من العودة مجدداً إلى حياتنا في الصحراء في وقت غير بعيد.

مرّت أربعة أيام، ولم تُطرح مسألة الرحيل بعد. كم ضقت ذرعاً بهذا المكان الذي يسمّى «زلفي». كانت بلدة شعثاء غير مثيرة للاهتمام، وكانت أشجار النخيل والأزهار

فيها قد علاها الغبار، وكل شيء فيها يدعو إلى السّأم[1]. كان العرب فيها غير ودودين، ولم يتمتعوا بمزايا البدو الذين عرفتهم، بل لهم عيون تلوح فيها القسوة. ورغم أننا نصبنا خيمنا بظاهر البلدة، فقد كان يأتي المئات من القرويين والعرب لتأمّلنا بحشرية وتشكك. كم كان الفرق كبيراً بينهم وبين أصدقائي من البدو! كانت لهم وجوه حادّة قاسية، وكان النظر إليهم يثير فيّ قشعريرة تنذر باقتراب الخطر.

بعد ظهر ذلك اليوم، أتى القائمقام *Kaimakam* وأعيان القرية مجدداً لرؤية الشيخ سلطان، وتبعهم المئات من القرويين الذين جلسوا القرفصاء أمام بيت شعر الشيخ سلطان، وراحوا يرمقونني بنظرات بغض حادّة. في غضون هذه الأيام تنامى تجاهنا شعور حاد من الكره. وبدا الحشد المتجمّع متعصباً وخطراً للغاية.

دخل الشيخ سلطان و القائمقام في نقاش حادّ، وبين الفينة والأخرى سمعت بعض الكلمات التي كانت تُقال، مثل «رومي» (افرنجي) و«الدرب المكرّم» و«الكفار». بعد ظهر ذلك اليوم، لم يقبلوا تناول القهوة، ولمّا تبيّن السبب أنه من جرّاء وجودي فقد غادرتُ خيمة سلطان لأنزوي في خيمتي. ولاحقاً أردت الذهاب في نزهة قصيرة على الخيل في نواحي تخوم القرية، ولكن الدكتور خليل أوضح لي بأن ذلك سيكون بمثابة موت محقق في حال خرجت وحيدة وسط هؤلاء القوم المتعصّبين.

لا بدّ أن المحادثة بين سلطان وشيوخ القرية كانت حامية لأنها استغرقت وقتاً طويلاً، لأنني رأيتهم يغادرون خيمته في وقت متأخر من المساء. كان الشيخ سلطان يستشيط غضباً بشكل لم أر له مثيلاً من قبل، وسرعان ما علمت الموضوع الذي دارت حوله هذه المحادثات. فهؤلاء الناس المتعصّبون لن يسمحوا لي بالمضي قُدماً خطوة واحدة نحو

---

(1) تفرض علينا أمانة النقل أن نترجم النص كما ورد، ورأي المؤلفة غير ملزم، ولا نقبل به. ونعدّه من باب الامتعاض منها لأنها لم تلق قبولاً لديهم. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أنها محقة. ونطلب من القارئ المعذرة على هذه العبارات المجحفة المرفوضة كلياً.

وسبق أن ذكرنا في المقدمة أن توتر الناس وسخطهم على الكونتيسة كان من جرّاء الظروف السائدة: قيام الحرب العالمية الأولى، وإعلان كبريات الدول الأوروبيّة الحرب على الدولة العثمانية (إلى جانب ألمانيا)، وبالتالي إثارة الإتحاديين لسخط المسلمين على كل ما هو أوروبي، وهذا ما فرض جوّ التوتر آنذاك. لا ريب بالفعل أن رحلة الكونتيسة الجريئة قد جاءت في أسوأ وقت على الإطلاق، وهذا ما أدّى إلى فشلها.

الجنوب. وقد كان ألدّ أعداء الشيخ سلطان وهم «الفدعاس» El–Faidassi يخيمّون عند الآبار التي تقع إلى الجنوب من «زلفي»، وإذا لم أعد أدراجي مع الشيخ سلطان في اليوم التالي سوف ينضمّون إليهم في مهاجمتنا، وسيقتلونني.

كل ذلك سبّب تشويشاً كبيراً في ذهن الشيخ سلطان، وكان مستعداً لخوض القتال مع جميع البدو في الدّنيا بأسرها. لكن الشيوخ المسنين لديه لم ينظروا إلى الأمر بالرأي ذاته. ولقد بدوا واجمين ومحتارين، ورغم أنهم كانوا يحترمونني ويقدرونني فإنني متأكدة بأنهم في أعماقهم يعتقدون بأنني غير مؤمنة وغير جديرة بالمضي قُدماً على تلك الأراضي والطرق المقدسة.

حتى الدكتور خليل ومحمود البسّام اعتقدا بأنه من غير الحكمة الدخول بمعركة مع «الفدعاس»، وحتى أنا لم أكن لأرغب في أن أتسبّب في هذا النوع من المشاكل الكبرى لأُناس لم يكونوا سوى أصدقاء أوفياء لي في هذه الأشهر الماضية.

في تلك الليلة، لم يخلد أحد منّا إلى النوم. فجلسنا حتى الفجر حول النار، نحتسي القهوة ونناقش الوضع ونرسم الخطط. فقرّرنا في النهاية أنه ينبغي لي أن أهرب في الليلة التالية مع قافلة صغيرة إلى صحراء «الدهناء»، وأن أسعى للوصول إلى «الصّفاة» Safah حيث سيلتقي بنا الشيخ سلطان خلال حوالي سبعة أيام. وفي تلك الأثناء سيزعم أمام القرية كلها بأنني مريضة وعاجزة عن السّفر، وسيقيم الولائم والحفلات لهم لمدّة أسبوع لكي أتمكن من الهروب بأمان وأبتعد، وسيقول لهم لاحقاً بأنني توفيت ليلحق بنا فيما بعد.

كان من المزمع أن يرافقني الدكتور خليل ومحمود البسّام، بالإضافة إلى حسن وعبد الله والفتى محمد. ولقد أعطاني الشيخ سلطان كتعويذة لجلب الحظ جوهرة زمرّد رائعة الجمال، مؤطّرة بشكل غشيم بالذهب على شكل خاتم. في البدء لم أستطع قبول مثل هذه الهديّة الغالية، لكنه أصرّ قائلاً بأنها لطالما جلبت الحظ السعيد لحاملها، وأنني لا ريب بحاجة للحظ الجيد في رحلتي.

مرّ اليوم التالي دونما أحداث تذكر. بقيتُ هادئة في خيمتي متخفية من العيون الفضولية المتلصّصة، فانتهزت الفرصة لأوضب الحاجيات القليلة التي كنت أنوي أخذها معي. عند

المغيب، عندما عاد كلّ العرب الغلاة إلى قريتهم، مضيت إلى خيمة سلطان. وكان جميع الشيوخ مجتمعين عنده سلفاً، فحيّوني بعيون كئيبة واجمة.

رغب الشيخ سلطان القيام توثيق صداقتنا وفق العادة العربيّة القديمة، فتمّ إحضار خروف وذبحه، وأريق من دمه في فنجان. ثمّ شكّل شيوخ القبيلة دائرة، دخلناها أنا والشيخ سلطان. وقام أحد الشيوخ بتقديم الفنجان إلى الشيخ سلطان، فغمس سبّابتيه في الفنجان ورسم على جبهتي ثلاث علامات، وطلب منّي القيام بالمثل له. كانت تلك الطقوس لدى العرب علامة لصداقة أبديّة. وخلال هذه الطقوس القصيرة كان الشيوخ يكبّرون باسم الله ويطلبون منه أن يحفظنا ويباركنا.

عندما عدت إلى خيمتي، وجدت عبد الله بانتظاري مع بعض الحاجيات التي أرسلها الشيخ سلطان لي للإستفادة منها خلال اليومين الأوّلين من رحلتي. وفاجأني أنّ تكون هذه الأشياء بمثابة سلّة النزهة لرحلتي:

1 ـ قدر من الحساء، بيض، حليب، وفحم لطهي الطعام.

2 ـ نوع آخر من الحساء، بطيخة، قهوة، ثمانية أرطال من الخبز وسمن طازج.

3 ـ أربعة حُلل كبيرة تحتوي على لحم يسبح في المرق.

4 ـ سلّة مليئة بالزبيب وحُقّ من ماء الورد.

5 ـ أربعة أطباق من الكُزكُز ونصف خروف مشوي.

6 ـ أربعة أطباق من اللحم والقمح المسلوق.

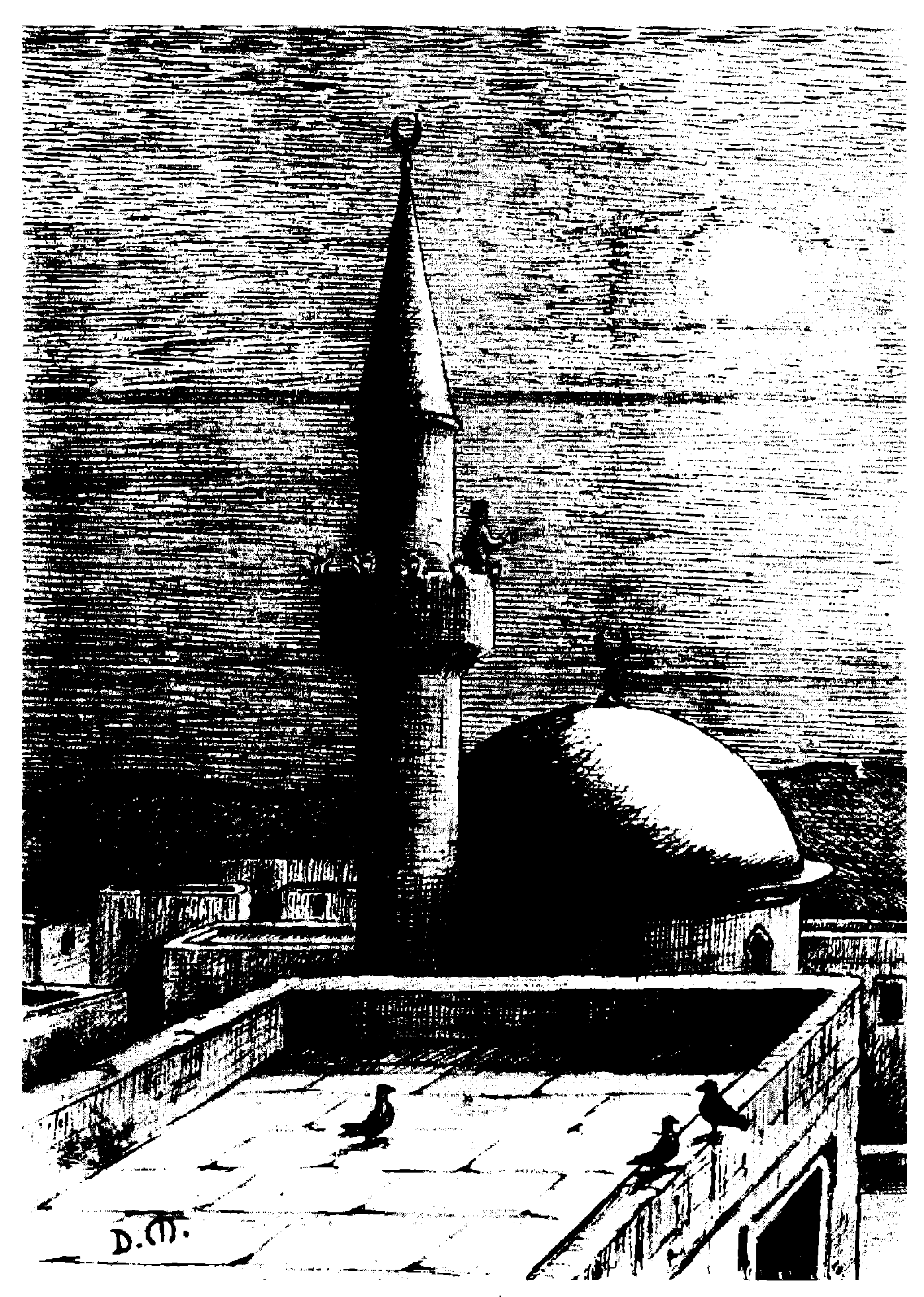
7 ـ خروف حيّ، خمسة أرطال من البنّ، سكّر. وأخيراً عشر دجاجات حيَّة.

قمت بجولة صغيرة على الحصان في المخيم لتوديع جميع أبناء الصحراء، وتركت لهم بعض الهدايا ليتذكروني. فاقترب الكثير منهم مني وقبّل ثوبي، وراحوا يقدّمون لي الهدايا البسيطة، هدايا أثّرت بي كثيراً: لآلئ، وتعاويذ، وخلاخيل، وحُجُب. كما وأني لم أنس الحوار الصغير الذي صار الآن يبدو كنعامة كبيرة، فودعتّه مربّتة على عنقه الطويل وحبّات

الخرز التي تغطّي رأسه.

عندما أصبحت جاهزة لامتطاء الذّلول، رجاني الشيخ سلطان بأن آخذ هجينه وشداده، عوضاً عن امتطاء ذلولي، على اعتبار أنّ كليهما أكثر راحة. ولقد أراد هو ورجاله مرافقتنا خلال بضعة أميال، ولكني رجوتهم بتركنا نمضي وحيدين، إذ أنني كنت أرغب بتجنّب وداع حزين آخر. ولذا، فبعد وداع ودّي مع أصدقائي المضيافين الذين أمضيت معهم وقتاً سعيداً وممتعاً، انطلقت قافلتي قُدُماً.

* * *



علا صوت المؤذّن من أعلى برج المئذنة

الفصل العاشر
بين العرب المتشدّدين

كان منتصف الليل قد حلّ عندما بدأنا مسيرتنا، وسرعان ما لفّتنا الظلمة الحالكة والسّكون، فلم يكن يدلّنا على وجود أحد خلفنا سوى رغاء الجمال المكتوم. كان الليل مفعماً بالطمأنينة والأمل، وقليلاً ما فكّرت بما يخبئ لنا اليوم التالي. عند الفجر، توقفنا لاحتساء بعض القهوة المرّة وأكل الأرز. فتفاجأتُ عندما استدركت بأن مآذن زلفي لا زالت تحت نظري، فشعرت بأنه طالما بقي هذا المشهد ماثلاً أمامي فإنّ الخطر لا زال يُحدق بي.

لاحظتُ القلق البادي على الدكتور خليل وهو يتبادل الأحاديث الخافتة مع محمود البسّام. فتأكد لي بأن هناك مشكلة وهما يتحاشيان أن يخبراني إياها. ولم يبادرا إلا عند المساء إلى إخباري بأن الفتى محمداً قد اختفى، وبأنهما يشكّان بأنه قد عاد إلى زلفي، ولربما يكون تلقى رشوة من أهل القرية ليتجسس علينا. سخرت من خوفهما لاعتقادي بأن ذلك الصغير تنقصه الجرأة للّحاق بقافلة صغيرة كهذه إلى الصحراء.

لكن لسوء الحظ تبيّن بأن مخاوفهما كانت صحيحة، فبعد ليلة اخرى من المسير وبينما كنا نجهز المخيم الصغير، رأينا سحابة قاتمة في الأفق، وسرعان ما أبصرنا نحو خمسين خيّالاً يخفّون مسرعين نحونا. كنا خمسة فقط، لكننا كنا جميعاً جاهزين للقتال. تركناهم يقتربون منا، ثمّ ذهبنا للقائهم. فكان هؤلاء قائمقام زلفي وأعيانها، وبينهم فتانا محمّد. عندما وصلوا ناديتُه، لكن عينيه المزورّتين لم تواجها عينَي. لم يرد أحد مواجهتي عياناً، وكأنهم سيفقدون أرواحهم بمجرّد النظر إلى إفرنجي. وقالوا لمحمود البسّام بأننا قد خدعناهم، وبأنهم لن يسمحوا لنا بتخطي هذه الحدود وسوف يرجعونني بنفسهم إذا حاولت فعل ذلك. وقد قالوا بأنه سينشب قتال إذا بقيت مع الشيخ سلطان وبأنني سوف ألاقي حتفي. وقالوا إنهم لن يهاجموا مخيماً يتألف من خمسة أشخاص، لكنهم يريدون التأكد من أنني أُرجعت عن مساري ولم يعد يُسمح لي بالتجوال في بلدهم.



ضريح أحد الأولياء



عرب من زلفي

لكن بمعزل عن تشدّدهم الديني، فلقد علمت بأن سبب كرههم لي كان رجلاً معنا في المخيم، أخبرهم بأن ما يدفعني للمضيّ قدماً عبر الصحراء الجنوبيّة هو البحث عن الذهب والمعادن الثمينة الموجودة هناك، وبأنني ساعود لاحقاً بصحبة جيش لأحتلّ بلدهم.

لم يكن هناك من شيء أمامنا نفعله، فنقضنا مخيّمنا وحزمنا أمتعتنا وعدنا أدراجنا تحت خفارة القوم إلى زلفي حيث تمنيت على غير المتوقع بأن ألقى قبيلة الرّوَلة[1]. لكن لخيبة أملي كانت كل خيام أصدقائي قد اختفت، فأدركتُ في تلك اللحظة بأنني تحت رحمة هؤلاء المتشدّدين.

في زلفي بقيت في دار القائمّقام، مبعدة عن الدكتور خليل ومحمود البسّام. وبعد الظهر أتى شيخ ليخبرني بأن قافلتنا جاهزة، وتحت النظرات والصّيحات الغاضبة، تركت زلفي مع الدكتور خليل ومحمود البسّام والشيوخ وعبد الله يرافقنا أربعون رجلاً.

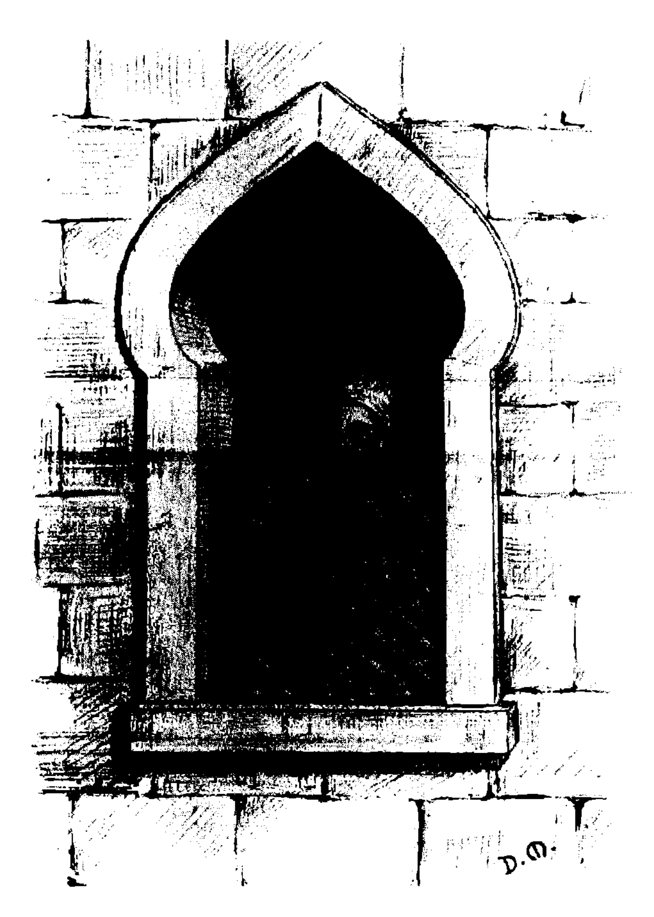
لم يرض أحد بإخبارنا متى رحلت قبيلة الرّوَلة. ولم يرغب الشيخ العربي من زلفي بإشعارنا بأننا سجناء، بل كان كأنه موضوع تحت تصرّفنا مرافقاً ليطمئن إلى رجوعنا سالمين.

تابعنا رحلتنا بصمت حتى بلغنا بُريدة، حيث تجمّع حولنا حشد من العرب، وعندما قال أحدهم إنني إفرنجيّة، بدأوا برمي الحجارة وقذفي بالسّباب. بالكاد تمكّن الشيوخ من ردعهم عن أذيّتي، وسارعنا وصيحاتهم تتبعنا إلى بلوغ دار القائمّقام. كانت هذه الدّار بناءً واطئاً مربعاً، متداعياً وأشعث، وخشيت بأني قد أمضي الليلة فيه، فربما كان فيه جرذان وهوام. تمّ تسليمي إلى رقابة حارسين من الأعراب، كانا يرتديان ثياباً رائعة تتألف من عباءة سوداء وغترة بيضاء منسدلة، مع سيف فضي كبير في الحزام، فاصطحباني إلى غرفة انتظار.

بعد بضعة دقائق طُلب إليّ المثول أمام القائمقام. كان الرّجل قصيراً ودميماً ويرتدي الزيّ الأوروبي، ممّا جعله يبدو غريب الهيئة. نظر إليَ نظرة شك وارتياب من خلال نظارته الكبيرة، وسألني عن الرجال الذين يرافقونني من يكونون، وإلى ما هنالك من الأسئلة. فشرحت له بأنهم كانوا مرشدي وترجماني وخُدّامي، وأنهم أيضاً عائدون إلى دمشق. فقال لي بأن الأوامر تقتضي بسجني أنا فقط.

---

(1) تقصد الولد علي.



«في دار القائمقام»

قلت: «ولكنهم ليسوا سجناء يا سيدي، بل هم أحرار عائدون معي فقط إلى دمشق».

فأجاب: «إذن يجب أن يقوا بعيدين عنك، ولن يُسمح لك بأن تريهم. وأمّا بالنسبة لك فستقضين الليلة هنا».

في هذه الأثناء، دخل الشيخ الذي كان مرافقي في هذه الرحلة، وتدبّر إقناع القائمّقام بتغيير الأمر الاخير، ليسمح لي بقضاء الليلة في خيمتي، تحت الرّقابة المشدّدة للحارس العربي. وكأنني كنت الآن سأفكر بمحاولة الهروب، في حين كنت أستطيع فعل ذلك بسهولة بينما كنت في زلفي!

عثر الدكتور خليل ومحمود البسّام على أحد معارفهما فأمضيا الليلة في داره. وفي

الصباح الباكر غادرنا بريدة، تحت النظرات الحادة والشتائم من الأهالي المتشدّدين من جديد. فقابلنا الدكتور خليل ومحمود البسّام خارج البلدة، حيث كانا بانتظارنا. قال لي الشيخ بأنه سيصطحبني إلى الرُّس، وبأنّ هناك عربي آخر سيتولّى أمري. كان المفترض أخذي إلى المدينة المنوّرة، حيث علي العودة بالقطار إلى دمشق. وهكذا أكون أول امرأة أوروبية تذهب بهذه الرّحلة في الخط الحديدي الحجازي، وسرّني أنهم اختاروا لي هذا الطريق، وليس الطريق الطويل عبر الصّحراء.

كانت قافلتنا صغيرة وكئيبة. فكنت أنا وكلّ من محمود البسّام، والدكتور خليل، والشيخ من زلفي على ظهور الخيل، بينما تبعنا المرافقون من أبناء المنطقة على ظهور البغال، أمّا عبد الله وحسن فكانا على متن الجمال المحمّلة بالمتاع. سرنا منذ الفجر حتى السّاعة العاشرة. وبعد استراحة قصيرة، تابعنا مجدداً حتى الخامسة. ثم توقفنا لتناول الطعام، وبعدها تابعنا حتى قرابة التاسعة، لنتوقف مجدداً لقضاء الليل حيث جُهّزت لنا الخيام، وكانت خيمتي بعيدة قليلاً عن البقيّة ولكّنها قريبة من العرب.

في منتصف الطريق إلى الرُّس مررنا بالشبيبيّة[1] وهي قرية عربية شعثاء، وبما أننا اضطررنا لجلب بعض المؤن من هناك فلقد خشيتُ من احتمال توجيه الشتائم لي وإزعاجي. لكن الشيخ هدّد الجميع بعقاب عسير في حال ثرثرتهم مجدداً بأنني فرنجيّة. فاعتقد السكان بأنني أسافر مع خفارة صغيرة تحت حماية الدولة، فلم أواجه أيّ إشكال، اللهم سوى النظرات والأسئلة الحشرية، لا شيء أكثر من ذلك.

خلال عدة مراحل من المسير وصلنا إلى الرّس، وهو موضع يحتوي على حوالي خمسة آلاف نسمة، غالباً من العرب المختلطين من عدّة عشائر. أمّا الدور فهي مبنية بالطوب وتحيط بها الحدائق التي شيّدت حولها أسوار عالية. في تلك الحدائق زرعت أشجار الليمون والرّمان، وبطبيعة الحال النخيل. بدا لي الناس ببشرة شاحبة تختلف عن البدو السُّمر. كان الرّجال يرتبون شعورهم في ضفائر (قرون) أو خصل مجعّدة، مع وشاحات بيضاء حول رؤوسهم. وبدلاً من البنادق كانوا يحملون سيوفاً فضّية. لقد كانوا أصغر بنية من البدو، وليست لهم تلك القسمات الجميلة كالبدو. لقد أثرنا بالطّبع حالة من الاهتياج

(1) ترد العبارة في الأصل المطبوع بالغلط: Shabitiah.

أيضاً، رغم أننا تركنا قافلتنا الصغيرة خارج القرية وكنا نركب مفترقين.

هناك، افترق عني شيخ زلفي ليتركني إلى من يليه في المهمّة. وكانت الخمس دقائق القادمة كفيلة بتبيان كم كان ذلك التغيير مؤسفاً. لأن الشيخ الجديد عاملني بقلّة احترام، وبعد أن أُمطرت خلال نصف ساعة بالمئات من الاسئلة المضنية، تمّ أخذي إلى غرفة صغيرة مظلمة، حيث توجّب علي البقاء حتى نغادر مجدداً. لم يكن باستطاعتي رؤية الدكتور خليل أو محمود البسّام، ولم يكن مسموحاً لي كذلك أن أقرأ أو أن أكتب.

بينما جلست هناك وحيدة وبعيدة عن الآخرين، ظهر عبدان مسلّحان، قائلين لي بانهما تلقيا أوامر من السلطات بفتح صندوقي. لكنني رفضّدت اعطاءهما المفاتيح، ففتحاه بالقوة، وصادرا ما فيه. ثمّ أمراني بدفع غرامة مقدارها عشرون جنيهاً. لحسن حظى كنت أحتفظ بمالي كله في جيب صغير داخل سترتي، فبعد أن فتشا كل شيء وقلباه رأساً على عقب دون جدوى تركاني، وهما يشتمان ويلعنان.

عندما عادا في المساء لإحضار الطعام لي، قالا لي بأن الحاكم قد قال بأنه سيتمّ رميي بالرّصاص حالما أصل إلى دمشق. وأضافا بهزء بأنه من الأفضل القيام بهذا الأمر هنا ولا داعي للانتظار حتى دمشق. وبعد تلك الملاحظة اللطيفة، وضعا لي الطعام فبدأت بتناوله وأنا أتظاهر بشهية مفتوحة، لكي أظهر لهما عدم اكتراثي لتهديداتهما. بعد ذلك كان بوسعي النوم في هذه الدّار المضيافة، لولا أنّ بعض الجرذان الضخمة ألجأتني إلى التحوّل من زاوية إلى أخرى، وكم كانت سعادتي كبيرة عندما بزغ الفجر واختفت الجرذان.

عند حوالي الساعة السادسة أحضر لي الرجال بعض الحليب والخبز، قائلين لي بأنه عند العاشرة سيأتي الحاكم ليراني. فتساءلت كيف يبدو شكل هذا الجلف الذي أمر بمصادرة أغراضي وعمل على إخافتي بالتهديدات. وعند السّاعة العاشرة، دخل غرفتي يرافقه عبدان مسلحان. كان رجلاً ضخم الجثة متين القامة، وكان نزقاً ويتكلّم بغضب. لم أفهم سوى نصف ما كان يقوله، لأنه يرعد بكلام يصعب فهمه. لكنني فهمت بأنه يجب معاقبتي بشدّة على وقاحتي، وشيئاً عن الفرنج الخبثاء، وامرأة وأفعى، وأن سجني كان سيدوم حتى المغيب لحين إرسالي برفقة حارس أشدّ من ذي قبل. ثمّ خرج من الغرفة يصحبه عبداه المسلّحان، وصفق الباب وراءه بقوة.

بعد مضي نصف ساعة، أتى الشيخ العربي بأخبار مزعجة مفادها أنّ القائمقام أمر بأنّ الدكتور خليلاً ومحموداً البسّام بالإضافة إلى خدمي يتوجّب عليهم إكمال مسيرتهم وحدهم، وبأنّه لن يُسمح لأيّ منهم بمرافقتي أحد سوى عبيده وهو شخصياً. فاعترضتُ مجدداً بأنني بحاجة إلى خدمي.

فأجاب: «لن يكونوا سوى مصدر خطر وتعويق». ثم أعرب عن مخاوف الحاكم. وقال إنّ من الرَّس حتى «الحناكية» صحراء طويلة علينا اجتيازها، وعلينا المرور في مناطق حيث سنلاقي مضارب عشيرة العنزة الكبيرة. كان من المفترض بأن محموداً البسّام يعرف أبناء تلك القبيلة وسيطلب منهم مساعدتي. ومخافة من أتمكن من الهرب، الأمر الذي سيؤدّي إلى قتلهم جميعاً، سوف يضاعفون المرافقة المكلفة بحراستي، ويبقونني بمعزل عن البقيّة.

كانت هذه أخباراً غير سارة، فإني لم أكن أودّ السفر وحدي مع هؤلاء العتاة النزقين. ولو رافقني كان ذلك الشيخ لما كنت شعرت بالسوء، فلقد كان مهذباً ولطيفاً، لكنّ هذا الرجل قاسٍ وكان يحلو له التضييق عليّ.

عند المغيب قيل لي بأن أتحضّر، وبما أنه لم يكن بوسعي رؤية أيّ واحد من رجالي، فقد مُنعت ايضاً من جلب خيمتي، ولا أيّ شيء من الحاجيات الضروريّة التي أحتاج اليها في الرحلة. أتى أربعة رجال مسلّحون من أبناء المنطقة لاصطحابي إلى الساحة، حيث امتطيت حصاني وانطلقنا. وكان يرافقني ثمانية رجال على البغال، مدجّجين بالسلاح وبواريدهم على أكتافهم، ومسدساتهم وخراطيشهم في أحزمة على خصورهم. وهناك بغلان يحملان قِرَب الماء والعدد والزاد، وكان معنا الشيخ العربي. أتى جميع السكّان ليشاهدوا المنظر، وكان هناك حشد كبير وتدافع وصياح، إلى حدّ أن العرب اضطروا لاستعمال سياطهم الطويلة، يضربون بها يمنة ويسرة، لشقّ الطريق لنا للمرور.

بمجرّد خروجنا من البلدة، شعرت على الفور بحريّة وثقة أكبر، وبدأت أخبّ بحصاني بسرعة، ناسية لوهلة مرافقتي الثقيلة الوطأة. إلى الغرب من الرّسّ أصبحت المنطقة متماوجة بالآكام الرّملية التي بدأت تنتصب ويزداد ارتفاعها وانحدارها كلما تابعنا تقدّمنا. ولكن بعد خمسة عشر ميلاً أخرى، دخلنا سهلاً شبه مستوٍ، ولبضعة ساعات لم نر سوى السّهوب

الرمليّة (البوادي) التي تنتشر فيها الشجيرات المتفرّقة. كان القمر وضّاءً بما فيه الكفاية لينير معالم المنطقة بأكملها، وتابعنا مسيرتنا حتى ما بعد منتصف الليل، ثمّ أخذنا استراحة قصيرة. كنت آمل طوال الوقت بالالتقاء بالدكتور خليل أو أيّ واحد من قافلتهم الصغيرة في طريقي، ولكن لم يكن لهم أيّ أثر في أي مكان، ولم أكن لآمل برؤيتهم إلا لاحقاً عند أحد الآبار حيث سنتوقف للاستراحة.

سرنا مجدداً حتى شروق الشمس، وتغيّرت معالم الأرض، ومررنا بتلاع غرانيتيّة، بعضها لها ارتفاع شاهق. وخلال رحلتنا الطويلة لم يتمّ تبادل أي حديث بين الشيخ وبيني، لكنني فضّلت الصّمت بدلاً من ملاحظاته اللاذعة والسّاخرة.

من السّاعة الخامسة حتى السادسة توقفنا مجدداً، وكانت أحصنتنا تعبت جداً، إنما كان ما يزال أمامنا مسيرة ست ساعات حتى نصل إلى آبار الجزراويّة *Zirzawaiyah*، حيث كنا سنقضي الليلة. انتابني عطش شديد، فطلبت من أحد الرجال كوب ماء، ففعل كذلك، ولكن في طبق كان قد تناول فيه طعامه وكانت بقايا الطعام تسبح فيه، وعندما طلبت منه إحضار كوب نظيف لي ضحك وأهرق الماء على الرمل قائلاً لي: «فرنجيّة خبيثة»، رغم أنّ هذا الماء كان شيئاً عزيزاً. فانفجر الباقون ضحكاً من جرّاء كلماته، وحتى الشيخ بدلاً من ردعهم انضمّ اليهم. لذلك بقيت دون ماء، بينما جلسوا هم جميعهم يأكلون ويشربون ويدخّنون ويرمون الضحكات والملاحظات اللاذعة هنا وهناك. ودعاني أحدهم للقدوم والجلوس معهم. وكم سرّني عندما انتهت هذه المهزلة وتابعنا مسيرنا من جديد.

حوالي الظهيرة وصلنا إلى آبار الجزراويّة لأصاب بخيبة أمل عند رؤية ذلك المكان مهجوراً ليس به أحد، حيث أنني كنت آمل الالتقاء بالدكتور خليل ومحمود البسّام هناك. لكنني وجدت آثاراً لوجودهم، من خلال الحفر التي نصبوا فيها خيامهم، وبعض علب الصفيح الفارغة المستعملة للأطعمة المحفوظة. ولكنني مع ذلك لم أفهم لمَ غادروا دون انتظاري، فقد كان أمراً محزناً بقائي طوال فترة بعد الظهر مع هؤلاء القساة، وكان ثمّة احتمال أن نبيت هنا هذه الليلة.

عند الغداء قام أفراد مرافقتي بتكرار المشهد الصغير الذي جرى قبل بضعة ساعات. نصبت خيمة كبيرة مربّعة راحوا يعدّون الطعام تحتها. فلمّا صار كل شيء جاهزاً، انضمّ

إليهم الشيخ وبدأوا بالأكل. كنت أجلس على بعد يسير منهم، قرب حصاني، وانتظرت أن يحضر لي أحدهم طعامي. ومن الواضح أنهم استمتعوا كثيراً بتركي أنتظر، واستمرّوا يطلقون الملاحظات السّاخرة ويستهزئون بي. وبعدما فرغوا من الأكل، أحضر لي أحدهم بقايا الطعام مع الملاحظة التالية: «الرّوم ينتظرون الأكل بعدما يفرغ منه غيرهم».

الأمر الوحيد الذي أمكنني فعله هو أنني لم أعر أية أهمية لكلامهم القاسي وتصرّفاتهم الخشنة. الأمر الوحيد الذي أسفت له كان عدم وجود خيمة لي، فحاولت تجهيز ملجأ لي اتقاءً لحرّ الشمس قدر الإمكان بواسطة لفاع أو غطاء يخصني، وحاولت أن أحظى بقسط من النوم. بعد الظهر رحل الشيخ مع خمسة رجال، ربما كانوا يقصدون الصيد، وتركني وحدي مع المرافقين الثلاثة الآخرين المزعجين. كلّ ما كان معي للدّفاع عن نفسي ضدّ وقاحتهم كان سوط الخيل، واضطررت لاستعماله مراراً. كان عليّ إبقاؤهم بعيدين عني كالوحوش الكاسرة. وكم كانت سعادتي كبيرة عندما عاد الشيخ مع الآخرين. لأنه وإن لم يردعهم عن توجيه الإهانات إلي، فبوجوده لم يكونوا يستطيعون التمادي في إهانتي كما الحال عندما كانوا بمفردهم معي.

كان الوقت يمضي ثقيلاً وبطيئاً على نحو رهيب. قُدّمت لي وجبة أخرى بالطريقة المخزية ذاتها التي جرت ظهراً. وبعد ذلك تدثّرت بغطائي، وقرّرت بعدها النوم لنسيان هذا الوضع غير المريح. فاستغرقت في نوم عميق كأحد الاطفال إلى أن أيقظوني عند الساعة الرابعة. لم أستطع متابعة نومي أو القيام بالتجهيزات اللازمة، إذ أننا انطلقنا خلال خمسة دقائق. وبعد امتطاء الخيل لخمسة عشر من الأميال مجدداً في الارض القاحلة والمليئة بالصخور والأحجار، عدنا لنجد بعض الخضرة، مدركين بأننا قد اقتربنا من بئر آخر. عند حوالي الساعة الحادية عشرة، دخلنا إلى وادي جرير، وهو وادٍ محاط بهضاب متحدّرة. ولشدّة فرحي رأيت عن مبعدة بياض خيمة، لا بدّ أنها تعود لرجالي، حيث أنّ العرب لا يستعملون سوى الخيام السّود أو الملوّنة. فلمّا دنونا قليلاً تبيّن لي فعلاً أنها قافلتي الصغيرة، تخيّم حول البئر.

كانت فرحتي وسعادتي بلقائهم تعادل غضب الشيخ العربي عندما أبصر بهم. فوق أي شيء آخر، كان حتماً ليقرّر متابعة المسير، ولكنه لم يستطع لأننا علينا جمع ما ينقصنا وتعبئة

قِربنا. ناهيك عن التّعب الذي أصاب جيادنا. لذلك كان علينا البقاء. ولكنه نصب خيمته على بُعد حوالي نصف ساعة من البئر. وعلى ذلك، اقترب منا الدكتور خليل ومحمود البسّام. فلمّا رآهما الشيخ يقتربان، لوّح لهما بغضب، وأمرني بالعودة إلى خيمته. رفضت ذلك، فطلب من رجاله أخذي إلى الخيمة بالقوة وإبقائي هناك. ولكن بما أن واجهتها كانت مكشوفة بالكامل فقد كان بوسعي رؤية محمود البسّام والدكتور خليل وناديت عليهما للاقتراب من الخيمة حتى نتكلّم سوياً. ولكن لم يُسمح لهما بالاقتراب أكثر من من عشرة ياردات. إلا أننا تبادلنا بضع كلمات، فأخبرتهما بالمعاملة الوقحة التي تعرّضت لها، ورجوتهما البقاء بالقرب مني في المستقبل. فوعداني باتباعي، ولو على مسافة ما. ثم طلبت منهما إرسال خيمتي وبعض الحاجيات اللازمة لي. وبعد بضع دقائق، طلب إليهما الشيخ الرّحيل، فعادا إلى مخيّمهما. لكنني شعرت براحة كبيرة لرؤيتهما ولمعرفة أنهما موجودان بالقرب مني.

جُلبت إلي خيمتي، وصار بإمكاني أخيراً إسدال ستورها ما بيني وبين هؤلاء الأجلاف، ولم يعد علي تحمّل نظراتهم وكلماتهم الوقحة. كما أرسل لي الدكتور خليل بعض المعلّبات والبسكويت، فصار بإمكاني رفض تناول بقايا وجباتهم. ولم يبدُ أنهم لبثوا مرتاحين إلى وجود رجالي على مقُربة، فانطلقنا نسير مجدداً في الساعة الرابعة.

ومرة جديدة، اجتزنا قفراً من الشجيرات والصّخور، كان قاحلاً ومقفراً كما لو أننا كنا ما نزال في قلب الصّحراء. تابعنا مسيرنا حتى بعد حلول الظلام، ولم نكن نتوقف للاستراحة غير نصف ساعة. وفي لحظة من اللحظات كنت على متن حصاني شبه نائمة عندما سمعت الرجال يتفوّون بأشنع الألفاظ. نظرت إلى الأمام فرأيت في الأفق مئات من النيران مشتعلة.. إنه مخيّم للعرب. لاحظ الشيخ سعادتي فعلّق بسخرية بأننا سوف لن نخيّم هذه الليلة، بل سنتابع مسيرنا حتى الصباح. ولكن على أيّ حال كان لا بدّ لنا من التوقف، لأنّ اثنين من البغال كانا يعرجان.

اقتربنا من المضارب، فرأينا بضع آلاف من الخيام، كلها من بيوت الشعر السّود beits، العائدة للبدو النازلين بالقرب من آبار باب الشراه Babin–el–Churah. ولمّا كنا مضطرين للبقاء من أجل البغلين الأعرجين، فلقد توقفنا على مسافة من المضارب. وحتى

قبل أن ننصب خيامنا أحاط بنا البدو مرحّبين ويطرحون الأسئلة. وبعد دقائق معدودة وصل الدكتور خليل ومحمود البسّام مع رجالهما، ولمعرفتهما ببعض البدو قوبلا بالتحيات والسّعادة الجمّة، ومضيا إلى خيمة الشيخ. في هذه الاثناء، تمّ نصب خيامنا، وتناولنا طعامنا.

بعدها، خرجت من خيمتي لانتظر محموداً البسّام للعودة مع الآخرين، وفي تلك المرّة لم يجرؤ الشيخ على توجيه الأمر لي بالبقاء في خيمتي، ولعله كان يخشى من الكثرة الغامرة للبدو. وفي حوالي الساعة التاسعة أتوا جميعاً: محمود البسّام والدكتور خليل والشيخ، وبرفقتهم العديد من البدو. قمت لتحية الشيخ، واعتذرت له عن عدم وجود بساط لديّ يجلس عليه أو قهوة أقدّمها له. وكان محمود البسّام قد شرح له ملابسات المسألة بأسرها. وهذا الشيخ كان شيخ قبيلة العمارات[1]، التي تعود إلى عشيرة عُنِزَة، مثلها مثل الرّوَلة.

عندما جلس الشيخ موسى معنا، لم يكن من الممكن لنا مناقشة وضعي دون التسبّب في زيادة الإحراج علي، فلذلك تحوّل الحديث بشكل رئيسي إلى الجولات المقبلة، وإلى الاضطرابات الجارية على السّاحل. ولقد رجاني أن أقبل بعض الهدايا الصغيرة كالقهوة، والدجاج والقمح، وقال بأنه سيرسلها حالاً. ثمّ قام وراح يودّعني بالأسلوب العربي البليغ الجميل: «يا أميرة، بنت أبيض فرنجي، يا شبه الطّير لو قصّوا جناحه[2] رايتهم تصير سودا وكلّ الناس تبغضهم. الله ضيفكم!».

(1) العمارات من كبريات عشائر عنزة، تقطن بادية العراق، ومنازلها تمتدّ على شاطئ الفرات شمالاً من كربلاء إلى عانة والبوكمال وجنوباً إلى حدود النفود، وكانت تنتجع في الصيف مسبقاً في مناطق الآبار والغدران في وادي حوران المتجه نحو الفرات. وينقسم العمارات إلى فرعين: الجبل وشيوخهم آل الهذّال، والدّهامشة وشيوخهم آل مجلاد. وكان ألدّ أعداء العمارات عشيرة شمّر. انظر: عشائر الشام، لأحمد وصفي زكريا، 2 :95.

(2) العبارة منقولة في الكتاب بشكل غير مفهوم على الإطلاق بكلمات عربية وحروف لاتينيّة. لكن تتمة كلامه من خلال الترجمة هي كما يلي:

Raithoon tseer soda a kull emas tibrnoon. May Allah punish those who have done you harm that people may see that your heart is white and theirs is black as a snake's، and will hate them. May Allah protect you!



المخيم

بعد دقائق على مغادرته رأيت بدوياً آتياً لجلب الهدايا لي. كان ينوي وضعها في خيمتي، ولكن أحد الحرّاس طلب منه إعطاءها له، فرفض إعطاءها له، فما كان من الرّجل إلا أن بادر إلى سوط الطويل وضربه ثلاث ضربات شديدة على وجهه، أثرت فيه بعلامات دامية. فانقضّ عليه البدوي كنمر جريح، ولكن على الفور قبض عليه ثلاثة رجال آخرين. فوجدت أنّ من الأفضل لي الانسحاب إلى خيمتي إلى أن اختفت الأصوات في الخارج، وعاد الهدوء من جديد.

في الصباح التالي، عندما خرجت من خيمتي، لاحظت الوجوه واجمة، ولما غادرنا مخيّمنا لاحظت بأن رجلاً كان ناقصاً. وتبيّن أنه وُجد ميتاً هذا الصباح قرب الخيمة. ولعله دُفن في المكان ذاته حيث جلد البدوي بسوطه. لا أدري كيف حدث ذلك[1]، ولم أسمع أيّ ضجّة خلال الليل، وكان من الحكمة عدم طرح الأسئلة. كانت تلوح على وجوه الرجال الرغبة في الانتقام، لكنهم كانوا الآن يخشون البدو.



(1) من الواضح أنّ غريمه قد عاد إليه في الليل وطعنه بشبريّته، فالبدوي لا يقبل الضيم ولا ينام عليه.

الفصل الحادي عشر
«مرافقتي» الخطرة

عاجلاً أصبحنا خارج مرمى نظر المضارب الكبيرة، وغمرتنا مرة أخرى قفار الرّمال والصخر. ولقد أعمتنا رياح الخماسين khamsin الرهيبة التي راحت تسفو الرّمل الحار داخل عيوننا، بينما طفقت تصدمنا جحافل الجراد الأصفر الضخم. ومن خلال السير قُدُماً ملثمي العينين والوجه مضى الوقت ثقيلاً مضنياً وفوق كل وصف. فالتمسنا ما وراء الأكمة ملاذاً لفترة من الوقت. عندما انطلقنا مجدداً انقضت عقبة واحدة على الأقل، ألا وهي جيش الجراد. كانت رحلة الضحى تلك من أكثر الرحلات إنهاكاً لي وللجياد المسكينة على حدّ سواء، خاصّة أنّ الرمال كانت فائقة الطراوة والتحرّك.

تغيّر المشهد خلال الخمسين ميلاً الأخيرة. فلقد أصبح السطح قاسياً مجدّداً مكسواً بفيض من الصخور والحجارة. وصلنا بحلول الظهيرة إلى قرية صغيرة تضطجع عند واحة نخيل، لكنها بلا ريب بدت مهجورة. اجتزنا دروباً ضيقة مظللة بأشجار النخيل، دون أن نلقى أثراً لكائن حي. على حين غرة، في أسفل الوادي، خرج عربي من خيمة بالية مرتدياً ثياباً رثة، هيئته بائسة كانت كافية لأن ترعبني. كان حارس القرية، وعرض علينا أن يصطحبنا إلى دار القائمقام. فاقتادنا إلى ما يشبه الساحة، حيث بلغنا بناءً طينياً واطئاً. وجدنا أنفسنا في قاعة فسيحة يتصدّرها رجل مسنّ هو القائمقام، محاطاً بجمع من العرب. طُلب منا أن نتخذ مجلساً بمحاذاة الجدار، حيث أحضر لنا الخادم بعض القهوة مع النرجيلة. في هذه الأثناء، دخل بعض العرب الآخرين بخطوات بطيئة ملوكية متدثرين بالعباءات الفاخرة والوشاح الأخضر علامة حجّاج مكة المكرمة، حُيُّوا بأحسن التحيات والاحترام، ممّا يدل على أنهم من كرام شيوخ الصحراء، أتوا لكي يسوّوا مسائل تجارية مع القائمقام، فكان نقاشهم يعلو تارة وينخفض طوراً، ونحن باقون على جلستنا بمحاذاة الجدار المظلم لا يأبه لنا أحد.

أخيراً، لحظ القائمقام حضورنا، عندما أُتي بفانوس ووقعت إنارته علينا. استدعى شيخ

العرب إلى دائرته، تحادثوا لنصف الساعة بينما ظلّ بقية الحضور صامتين، يحتسون قهوتهم وينفثون دخان نراجيلهم. صفّق القائمقام بيديه، فحضر اثنان من مساعديه، أعطاهم بعض الأوامر ثم توجّه إليّ طالباً مني أن أتبعهم. لم يلحظني أي من العرب الحاضرين، وفوجئت بأنهم لم ينظروا، رغم كونهم يشاهدون امرأة أوروپية في مكان من المؤكد أنّ لم يروا فيه شيئاً مماثلاً من قبل.

أُخذت إلى غرفة مفتوحة إلى سطح فسيح، وأحضر الخدم لي حصيراً وبعض الأرائك، فتمدّدت عليها مطمئنة البال لوضعي هذا، كان تغييراً مبهجاً، بعد رحلة طويلة برفقة غير سارة تخلّلتها عاصفة رملية حارقة، فالآن أجلس وحيدة على السّطح أراقب أشجار النخل تتمايل تحت وقع نسيم الليل. يمتد السّطح على طول الساحة الداخلية للمنزل الذي كان آنذاك خالياً، لذا قضيت ساعتين من أجمل ما يكون من السلام والاسترخاء.

لاحقاً أحضر لي خادم بعضاً من طعام الأرز وخضار الـ cozez[1] وبعضاً من الكزكز. عندما انتهيت أُبلغتُ أنه ينبغي لي المغادرة من جديد. كنت آمل عبثاً أن نمضي الليل في مكان مريح كهذا المكان، فغادرت دار القائمقام دون تبادل أية كلمة معه. وعندما تركنا قرية الماوية Marwiyah، التي كانت صامتة وخالية تماماً بعد ساعتين من بدء رحلتنا، مرّت بنا قافلة بدت كأنها بلا نهاية، كانت الغالبيّة العظمى من ركابها تمشي سيراً على الأقدام، وآخرون يحملون رزماً هائلة. كان يبدو عليهم الفقر والإنهاك، يسطع عليهم ضوء القمر الشاحب فيبدون على شاكلة «موكب الملعونين» "the Procession of the Damned" في لوحة بينيلّي Benelli. كنا نعبر طريق الحج الكبير، وهذه القافلة ما هي إلا القافلة المؤلفة من الحجيج العائدين من مكّة المكرّمة.

بعض انقضاء ساعتين أخريين من الرّحلة، مررنا بوادٍ ضيق مطوّق بصخور سوداء عالية، كان من الصعوبة التقدّم، لاسيما أن الأرض تتخللها حفر كبيرة، وتتناثر عليها حجارة عظيمة في كل اتجاه. كانت الصخور السوداء العالية تحجب الطريق، وجعلت الخيول تتعثر فوق الحفر في كل خطوة تخطوها، في الواقع كانت معجزة أن نجتاز هذا الوادي بأرجل سليمة. لكن تالياً لم يكن الأمر أسهل. قرّر الشيخ التخييم قرابة الساعة الثانية فجراً

(1) كذا في طبعة الكتاب، وهذا أيضاً من العبارات التي لم يفلح القائمون على الطباعة في قراءتها من خط يد دوروتيا.

حيث كنا، وكان جميع القوم في أسوأ حالة من المزاج، لكنهم أرادو الوصول إلى الحناكيّة، حيث ينبغي أن يبقوا، بينما يتوجّب عليّ أن أكمل مع مرافق جديد.

لم يكن ذلك الموضع مريحاً أبداً للتخييم، فلم تكن ولا ياردة واحدة من الأرض مستوية، بل كلّها حجارة مدبّبة نافرة من الأرض في كل اتجاه. نُصبت الخيام كيفما اتفق، وحاولت التكيّف قدر استطاعتي.

لعلّي استغرقت في النوم لمدة ساعتين، عندما استيقظت على وقع جلبة في خيمتي، وعبر ضوء الصباح الخافت رأيت رجلاً يسدل الستارة، في الحال شرعت بالتفتيش عن حقيبتي الصغيرة حيث أحتفظ بنقودي، فكانت لا تزال في مكانها. لكنني عندما أردت التمدّد ثانية، رأيت قرب وسادتي ثعباناً رافعاً رأسه للأعلى. وبما أنني لا أملك شيئاً في خيمتي لأقتله به، فقد أسرعت خارجاً لأنادي الأعرابي ليعطيني قضيباً، فرمقني بنظرة جامدة ماكرة، وأدركت في الحال أنه هو الذي دخل الخيمة، وهو من وضع الثعبان هناك.

لمّا سمع الشيخ صياحي فأتى ليعرف ما يحصل. في هذه الأثناء زحف الثعبان تحت وسادتي، لكن بضربة من القضيب خرج مرة أخرى، ورضخ الرجل رأسه بواسطة القضيب.

نظر الشيخ عمر إليه وقال: «هذا من حسن طالعك، فنهشة واحدة من هذا الثعبان السام كانت كفيلة بقتلك».

فأخبرت الشيخ بأنني شاهدت الرجل يغادر خيمتي، وهو من وضع الثعبان هناك. وبطبيعة الحال، أقسم الأعرابي بالله ونبيّه انه كان نائماً مع الآخرين عندما ناديته. فما كان من الشيخ عمر إلا أن هزّ كتفيه غير مبالٍ، وعاد أدراجه دون أن ينبس ببنت شفة. التفتُّ إلى الأعرابي وقلت: «أعرف أنك من فعل ذلك، وإذا لم أستطع أن أعاقبك الآن، فإنّ الله سوف يعاقبك لاحقاً». غادر بعيداً، محاولاً الهزء من كلماتي، فتملكني إحساس غير مرضٍ لكوني موجودة بين رجال عتاة كهؤلاء.

كان علينا أن نبقى حتى الظهيرة في مخيّمنا المزعج، وعندما أصبحنا على أهبة الرحيل قرابة الساعة الخامسة، علمنا أن اثنين من البغال عرجا، لذلك أفرغنا حقائبنا.. بقيت داخل

خيمتي طوال الوقت، مفعمة بالشك تجاه حركات مرافقي. لتمرير الوقت فتحت حقيبتي الصغيرة ونظرت إلى زمرّدة الشيخ سلطان الرائعة التي ينبغي لها جلب الحظ، ويا للصدمة.. لم أجدها مكانها ممّا يعني أنها سُرقت، أصبحت واثقة أن الخادم هو من استلّ الخاتم أثناء نومي ليلاً، ثم دسّ الثعبان. قررتُ ألاّ أتفوّه بكلمة آنذاك لإحساسي بأن الشيخ عمر قد يكون متواطئاً معهم، وعندما نصل الحناكيّة سوف أبلغ القائمقام عن مفقوداتي وأحاول أن أستردّ خاتمي. رفضت تناول وجبتي عندما أحضروها لي، لأنهم قادرون على الأذيّة، ولم أرد أن أجازف بتسميمي على أيديهم.

غادرنا قرابة الساعة الواحدة، تلفعنا الشمس، ومررنا ثانية بمناطق «سوداء». من جهة الشرق إلى الغرب تمتدّ سلسلة شاسعة من الهضاب كلها من الحجر الرملي الأسود، بعضها يبدو كتلال ضخمة من الرّماد. عند سفح الهضاب كانت الصحراء مكسوة بأحجار البازلت البركانية، ويكثر في المسافات المفتوحة الرّمل الأحمر السّميك. ظهرت هنا غربان ضخم، كانت هي الكائن الحيّ الوحيد الذي صادفناه في رحلتنا، وراحت تتبعنا، وبدت مكمّلة لسواد المنطقة المحطة. ثمّ تابعنا مسيرنا عدّة أميال مررنا بوادٍ عميق، جانباه الاثنان موصدان بصخور الغرانيت. وكانت الأرض مغطاة بكتل جلمودية من جميع الأحجام. كان يبدو كأننا تهنا في مجرى سيل جاف، كان أمراً وحشياً ورومانسياً على حد سواء، لكن اجتيازه أمر مرهق.

وصلنا الحناكيّة Hanakiyah قبل مغيب الشمس بقليل، وهي بلدة يبلغ عدد سكانها قرابة الثلاثة الآلاف شخص، ذات مظهر كئيب وحزين جداً، لا أثر فيها لأيّة زروع نامية أو أشجار من أي نوع، فقط كانت هناك نخلتان تنوحان على عزلة المكان. في الحال، طوّقنا مئات الأطفال، بعضهم كان عارياً، والبعض الآخر يرتدي قميصاً طويلاً، كانوا حسني المحيّا بالرغم من الذباب على وجوههم، غير مكترثين له كأنهم لا يشعرون به. بعد برهة من الوقت وصلنا إلى حصن حيث تبعتنا نصف القرية إلى هناك. وعند الحصن أُبلغنا أن القائمقام انطلق إلى مواضع في الصحراء، ولن يعود قبل صباح اليوم التالي، وأنه غير مسموح لنا البقاء في الحصن بغير إذنه، لذا نُصبت خيامنا خارج البلدة حيث أقمنا المخيم.



مساكن ضمن الكهوف

في قرية عربيّة

بدأ الخدم العرب يفرّقون بسياطهم الطويلة الحشود الغفيرة التي تجمهرت أمام خيامنا. شعرت بالاكتئاب لأنه يتوجب عليّ البقاء ليلة أخرى مع مرافقيّ. كنت أمنّي النفس بوجبة لائقة وليلة مريحة في الحصن، كنت بأمسّ الحاجة إليهما. لذا شعرت بالضعف والإحباط، ولم أكن أملك إلا بضعاً من التمر الجاف تبقّت معي، ولم أتجرّأ على تناول أي طعام يحضره لي القوم. كان الاستسلام للنوم أمراً صعباً تحت وطأة الشعور بالجوع، ولكن الإرهاق غلبني وغرقت في هجوع عميق.

قرابة منتصف الليل، استيقظت فجأة على صوت أحدهم يوقظني. بداية، ظننت أنه الوقت لأستعد، ولكن عندما نظرت إلى ساعتي وجدت أن الوقت لا يزال الحادية عشرة وخمساً وأربعين دقيقة. تساءلت ما الأمر، فكانت الإجابة: «استعدي حالاً! لقد رجع القائمقام ويريد أن تحضري إلى دار الحكم».

علمتُ ساعتئذ أنها شكوى غير طيّبة، لكنني بالرغم من ذلك كنت أتميّز غضباً. في القلعة أخذوني إلى غرفة حيث يجلس رجل عربي عجوز. كتب اسمي، وتاريخ ولادتي، وتاريخ زواجي، وتاريخ وفاة زوجي. لماذا يريد هذه المعلومات.. الله أعلم! أظن أنه قد طرح كل هذه الأسئلة ليعطي لنفسه بعض الأهمية. قلتُ إن المفترض أن أقابل القائمقام، وليس هو. ابتسم، وأجاب أنّ القائمقام سوف يحضر بعد عشر دقائق. وتابع استجوابي: متى غادرت لندن؟ متى وصلت دمشق؟ من أعرف؟ وكثيراً من الأسئلة على المنوال عينه. ثم دخل أعرابيان آخران، وجلسا أيضاً وراء المكتب يتابعان الأسئلة بابتسامة جافة.

مرّت أكثر من ساعة على هذا المنوال، أخيراً اشتكيت وأعلمتهم بإرهاقي، وبأني أفضّل النوم إذا كان القائمقام لن يأتي. فبعد أن أبقياني على هذا النحو لساعتين، قالا لي إنه يمكنني الذهاب، على اعتبار أنّ القامقام يبدو غير قادم الآن. لذا عدتُ إلى غرفتي.

كانت هذه الليلة من أسوأ الليالي التي أمضيتُها، كنت أفضّل أن يضعوني في السلاسل على أن يُطبق عليّ في غرفة التعذيب تلك. عبر ضوء الفانوس الخافت، رأيت خطين أسودين طويلين على الأرض، يبدو أنهما يتحركان ويقربان الفانوس إليهما، رأيت عمودين هائلين من النمل، كنت أعزي النفس بأن النمل ليس أكثر أو أقل من حيوانات نظيفة،

عندما وقع عليّ من السقف بعض من البقّ الأخضر الضخم، بعضه بضخامة النصف قرش، أصبحت عيناي أكثر تعوداً على الضوء الخافت، فأبصرت الخنافس الضخمة في كل مكان، والعناكب المريعة على امتداد الجدران، وفي الزاوية السحالي ذوات الرؤوس الضخمة والقبيحة. كلها تتحرّك ذهاباً واياباً كأنها تخطط لمهاجمتي. كنت مذعورة من كل هذه المخلوقات كالطفل، كان عليّ في كل ثانية تمرّ أن أسحق بعضاً من البقّ، والنمل والخنافس، وأن أصارعها طوال الليل. أخيراً، أشرقت شمس الصباح من خلال فتحة نافذتي الضيقة، فرأيت الأرض عبارة عن ساحة قتال حامية الوطيس مغطاة بجثث البق، والعناكب، والخنافس والنمل.

حوالي الساعة الخامسة، أحضر الخادم لي بعضاً من الحليب والخبز، وبعد نصف ساعة، دخل أعرابي الغرفة وقدّم نفسه على أنه حارسي الجديد قائلاً إنّ كل شيء بات جاهزاً للانطلاق، نزلت معه إلى البهو، حيث كان ينتظر أربعة عرب دون أن أرى القائمقام الأنيس، أو أيّ أحد من مرافقيّ السابقين معهم، ثم غادرنا الدار.

برهن مرافقي الجديد على أنه النقيض لمرافقيّ السابقين، إذ كان أنيساً ودوداً بدا لي على عكس الآخر الفظّ السلوك. بدأ حالاً بمحادثتي مؤكداً أنه يتفهّمني ويتعاطف معي، وأنه عليّ الوثوق به وأخباره كل شيء. لكنني لم أشعر برغبة حقيقية بإخباره كل شيء، الأمر الذي أحبط حماسته وتعاطفه.

سرنا حتى الساعة العاشرة، وعندها ترجّلنا لتناول طعامنا. هذه المرة كنت فعلاً مدللة، فكان الطعام يُقدّم لي حتى قبل الحرّاس، حتى أنني حظيت بفنجان من القهوة لاختتام وجبتي. لم أكن أستطيع التقليل من تهذيبي بعد تلقي هذه المعاملة المميزة، لذلك لم أستطع رفض تدخين السيجارة مع الشيخ الذي جلس معي. عرض عليّ واحدة من علبته، «من أفخر أنواع التّتن» كما قال. وجدت المذاق حلواً، وكان ذلك داعياً للتدخين مجدداً بعد إحجامي عن قبوله طويلاً، لذلك لم أرفض عرضه لتدخين سيجارة أخرى. ولكنني فجأة شعرت بشيء من الدّوخة والدّوار، إنما ظننت في البداية أنه نتيجة الحرّ وقلة النوم. ولكن عندما كان يلفّ السيجارة لي، انزلقت قطعة من الحشيشة ***hashish*** من يده إلى داخل العلبة، ومن خلال النظرة السريعة الخائفة التي رمقني بها، أدركت فجأة أنه قد وضع بعضاً

منها في سيجارتي، وأنّ هذا سبب الشعور الغريب بالدوار[1].

قلت: «لقد وضعت الحشيشة في سيجارتي.. كيف تجرؤ على فعل ذلك؟».

بالطبع تظاهر الرجل بعدم وضع أيّ منها في السيجارة الأولى وأنّ بمقدوري بسهولة تدخين الثانية مع قليل من الحشيشة داخلها. لكني رفضت رفضاً قاطعاً. أصبح بعدها غاضباً جداً، كل ابتساماته الودودة تبخّرت، ونهض حانقاً وهو يسبّ ويلعن، ونادى على رجاله وطلب منهم الاستعداد حالاً.

انطلقنا مجدداً عبر رتابة الصحراء، وعندما كانت المناطق تختلف في طبيعتها كان الاختلاف مفاجئاً وكليّاً. فتبدو الأرض بألوان مغايرة، وتأخذ الصّخور والهضاب بنية جيولوجية مختلفة، وكل شيء يتّخذ لوناً موحداً. فها نحن أولاء الآن نمرّ عبر أراضٍ بيضاء، يسطع فيها الرمل الأبيض تحت الشمس، بينما كانت الهضاب الكلسية البيضاء والصخور والأحجار البيضاء، بدلاً من العشب والزهور، تتناثر على طول مسارنا. فجأة رأيتُ على تلة بداخلها قعرة بيضاء ظلالاً سوداء، كان ذلك بدوياً مع زوجته وثلاثة صبية عراة، يتكون قفلهم من جمل وبضع عنزات. لم أفهم كيف يجازفون، وبالقليل يعيشون في قحط الصحراء. عندما شاهدوا العرب مجهزين بكامل أسلحتهم، نظروا إلينا بوجل وتجرّأ أحد الصبية من الإقتراب، وقدّم لنا قربة من حليب الماعز، متوسلا بعضاً من القهوة بالمقابل. كانوا بؤساء لدرجة يصعب معها رفض طلبهم. بدأ البدو بالاقتراب لتحيّتنا وشكرنا، توقفنا لبرهة، ونظرنا إلى الخلف، كانوا لا يزالون هناك، يلوّحون مودّعين وشاكرين، وبقي طيفان سوداوان يلوحان عبر أكناف الأرض المتسربلة في البياض.

دخلنا الآن وادياً ضيقاً تحفّ به الهضاب، وبعد أن هبطنا فيه نصف ساعة أو أكثر، انحرف مساره ووجدنا أنفسنا في جنّة من الاخضرار والزهر. لقد تغيّرت الطبيعة بكاملها وانقلبت إلى اللون الوردي! وأصبحت الهضاب الآن من الغرانيت الذي يومض بشتى درجات اللون الوردي. وكان ضمن هذه السّمفونية من الزهر، واحة صغيرة من أشجار

---

(1) تبدو هذه القصة غريبة جداً يصعب تصديقها. كان التدخين آنذاك أمراً بالغ التحريم، فما بالك بالحشيشة؟ لدينا الكثير من الأسباب للتشكيك في صدق المؤلفة في تفاصيلها، فيبدو أنها كانت تحاول إضفاء لمسات دراميّة ومبالغات للتأثير في القارئ. وكان من عادة مؤلفي أدب الرحلات في أوروبا في القرون السالفة الجنوح بالخيال كثيراً.

النخيل والإثل (الطرفاء). لقد كنا عند آبار «شقراء»، ويا لها من فردوس رائق من السكون والسلام، مزروع بأشجار الميموزا (السَّنط) التي ملأ عطرها الجو بعذوبة طاغية.

تقرّر أن نخيّم هنا حتى غروب الشمس، ونواصل السفر ثانية عبر الليل. لذا نُصبت خيامنا تحت ظلال بعض أشجار الإثل. واستلقى الخدّام العرب وناموا، أما الشيخ فكان لا يزال متجهّم الوجه يدخن السيجارة تلو الأخرى بحنق. لذا ألفيتُ نفسي حرّة في التجوّل واستكشاف الواحة الصغيرة، بالإضافة إلى ورود الصحراء الصّفراء والبنفسجية. وجدت الأقحوان وشقائق النعمان والليلك، وكم كان رائعاً التمدّد بينها والاستماع إلى همهمة وطنين الآلاف من الحشرات الصغيرة. لم يأت أحد ويزعج راحتي، ولساعات حلمت بالسماء التي بدت أشد زرقة عندما ابتسمت لاخضرار سعف النخيل. أخيراً تحولت الشمس إلى قرص أحمر ملتهب، فغُمرت زهور الهضاب النديّة والأرض بالرّمل الذهبي، إنه حقاً وداع مجيد للنهار.

عندما رجعت إلى خيمتي (على اعتبار أنّ موعد الانطلاق يحين عند مغيب الشمس) وجدت العرب جالسين في مجموعة، متحيّرين ومترددين.

سألتُ: «ماذا حصل ؟».

«أعطانا البينباشي *bimbashi* أمراً بالرحيل عند مغيب الشمس، كل شيء جاهز للرحيل، لكنه هناك، يغطّ في نوم عميق تحت شجرة الطرفاء، حاولنا إيقاظه فلم نفلح! لعل البينباشي مريض! ما العمل الآن».

قلت: «نادوه مرة أخرى».

لكن هذا الجهد كله كان يذهب هباءً، لبث الرّجل مثل المشلول لم يحرك ساكناً، عيناه تفتحان محدّقتين ثم تغلقان مجدداً. بعد ذلك نطق عربي بكلمة حشيشة، هذه هي إذن.. لقد دخّن كثيراً من الحشيشة، وهو الآن مخدّر وغير قادر على التحرّك[1].

قلت: «دعوه ينام، دعوا خيمته قائمة وخذوه اليها». لقد كنت حقاً محظوظة لقدرتي على بقائي الليلة في هذه الواحة الرائعة، وتناول عشائي على انفراد، وقضاء ليلة كاملة من الراحة.

---

(1) نعود إلى التشكيك بهذه الرواية كلها، في مجتمع كان يحرّم التدخين قطعياً فضلاً عن تعاطي الحشيشة. يبدو أن كثيراً من تفاصيل الرواية مختلق. راجع ما ذكرتُه في المقدمة.

أيقظتني باكراً في الصباح التالي جلبة رهيبة جداً، كان القوم يتصايحون، والرجل يصيح: «من طلب منكم ألا تنادوني؟».

أجاب رجل: «السّتّ طلبت منا ألا نوقظك».

فكانت إجابته الغاضبة: «من علّمكم أيها الأنذال أن تستمعوا إلى كلام شخص رومي؟».

خرجتُ من خيمتي عندما كان يهمّ أن يضرب بالسّوط واحداً منهم، وقلت: «لا تضربه، لقد نادوك فعلاً، لكنّ إيقاظك من سُباتك كان مستحيلاً بسبب الحشيشة».

رمقني بنظرة مندهشة وغاضبة، ثم استدار بعيداً يستبدّ به الغضب.

سرعان ما أصبحت الواحة الخضراء مجرّد حلم، وساد الجفاف والإقفار مرة أخرى. كل تلك الألوان الورديّة والحمراء التي ظهرت الليلة الماضية تلاشت، وتحوّلت إلى رمادي فاتح. كانت تمتدّ أمامنا لأميال وأميال سهول حجريّة قاحلة دون أيّة هضبة أو صخرة تكسر رتابة هذه القفار.

سرنا حتى الساعة الحادية عشرة، وعندما ترجّلنا لتناول الطعام، حاول مرافقي عقد هدنة معي مرة أخرى، وبما أنني يجب أن أتحمّل رفقته ليوم آخر، فقد فكّرت أنه من الأفضل أن نبقى على وئام، وكنت متأكدة أنه لن يضع الحشيشة سراً في سيجارتي مرّة ثانية.

بعد فترة استراحة قصيرة جداً، هُدّت الخيام وسرنا مجدداً. وصلنا قرابة الساعة الثانية آبار صبيّة Sabiyah، حيث وجدنا عدداً كبيراً من العرب يخيّمون هناك. طلب مني الحارس أن أبقى داخل خيمتي ولا أظهر نفسي، وامتطى جواده ليقابلهم. ثم بعد العصر رجع، وأخبرني أنه حصل شجار أدّى إلى قتال بين المخيمين، وأنّ عربياً قُتل، والآن الكل مستنفر، وأن مراسم دفن القتيل قد بدأت. كنت لأرغب بمشاهدتها، لكنه نبّهني إلى خطورة الأمر في الوقت الراهن، فطلبت منه أن يصف لي المراسم.

قال: «يشكّل النساء والرجال دائرة واسعة، يدخلها أقارب الميت، فيمتدحون فضائله ويعدّدون مآثره، بينما تبدأ النساء القريبات منه بالرقص بحركات ندب بطيئة وينشدن أغانيَ بنغمة حزينة، ويحثين على رؤوسهن الرمال، ويخدشن وجوهن بأظافرهن، ويشددن

شعورهن. ثم يغسلون الميت، على وقع نحيب النساء، ويلفونه بملاءة جديدة ليدفن على جنبه الأيمن موجهين رأسه ناحية القبلة الشريفة».

تناهى غناء النسوة الحزين ونشيجهن إلى خيمتي، فأعاد إلى ذاكرتي الغناء والرّقص في أعراس البدو، حيث ترافق عاداتهم دائماً القصائد والصبغة الرومانسية.

في تلك الليلة خلال تناولي عشائي جرى مشهد مثير، إذ أتى العربي بطعامي ووضعه على طاولتي الصغيرة، وعندها قفز فجأة صارخاً صرخة عظيمة، سألته ما الأمر، لكنه بدأ بالضحك والبكاء في آن واحد، دائراً حول نفسه، يغنّي ويصرخ ويولول، ظننت انه جُنّ فجأة، فاستدعيت الحارس.

قال حين وصوله: «يا الله، لقد لدغت الرجل البائس العنكبوت، ينبغي أن يكون هناك عزف فوراً».

استدعى الخدم حيث شرعوا بالضرب بعنف بالعيدان على الصفائح، بينما رحنا أنا والشيخ نصفق بأيدينا. رقص الرجل المسكين باهتياج على وقع الموسيقى المرتجلة قرابة العشرين دقيقة حتى وقع مغشياً عليه من الإرهاق.

قال الحارس: «إنه بخير الآن.. يعتقد المؤمنون بالخرافات[1] أن الموسيقى الجيدة والجيدة جداً وحدها كفيلة بإنقاذ الرجل من لدغة أنثى العنكبوت، لكن النقطة الأهم هي استمراره بالرقص».

شرعنا عندها في البحث عن الرُّتيلاء، التي كانت في تلك الأثناء بوسعها لدغ أيّ منا. فوجدناها بالقرب من طاولتي الصغيرة. كانت عنكبوتاً ضخمة، ولها جسم بنفسجي كبير. ورغبتُ بأخذها وحفظها، غير أنّ العرب قالوا بأنها تبقى خطرة حتى وإن ماتت، لأنها يمكن أن تسمّم الإنسان إن لامست جرحاً مفتوحاً.

* * *

---

(1) ليست هذه خرافة، بل إن الحركة العنيفة تؤدّي إلى التعرّق السّريع الذي يساعد على طرح المواد السّامة للأعصاب. وأسوأ ما يفعله اللديغ هو أن يستلقي ويرتاح.

الفصل الثاني عشر
الحياة في المدينة المنوّرة

غادرنا آبار «صبية»، حيث مررنا بمخيّم للعرب نالنا فيه ما نالنا من الصّياح والشتائم واللّعنات. فحثّني حارسي على الإسراع قدر المستطاع. بعد قليل، كانت بيوت الشعر العربية السوداء قد أضحت وراءنا، فأصبحنا هائمين مجدّداً في الصّحراء بين الرمال. وبعد اجتياز خمسة عشر ميلاً، مررنا ببعض القرى القاحلة والكئيبة، لنصل بعد ذلك إلى قرى أخرى تضجّ بالحياة والثمار اليانعة كأشجار الخوخ والتين، فضلاً عن حقول القمح.

وبعد مسيرة ساعات، أفضينا إلى رياض يانعة تحفّ بأشجار النخيل، لنرى بعد ذلك المدينة المقدّسة أمامنا محاطة بالجبال من ثلاثة اتجاهات. ويكتنف المدينة سور صلب قوي، وتوزّعت مآذنها الكثيرة مستدقّة نحو السماء الفيروزيّة الزرقة.

نصبنا الخيم خارج تلك الأسوار مباشرة، وخصوصاً لكي أغيّر ثيابي. كان علي خلع ثوبي العربي، لأرتدي ثوب المرأة المسلمة التي تخفي كل ملامح وجهها بما يسمى اليَشمَق *yashmak*. دخلنا بعد ذلك المدينة من خلال أحد أبوابها المسمّى باب الشام Babesh–Sham.

لمّا ولجنا الأسوار، وجدناها كثيراً من الحياة التي تفور بالحركة والصّخب. في كل خطوة كنّا نلتقي بالحجّاج الذين أتوا من مختلف أنحاء العالم، وقد ظهروا بأبهى الحلل، وكذلك الفقراء fakirs والمتسوّلين والملالي، بأسمالهم البالية. بعضهم جلس في الزوايا، محاطاً بحشد من المتفرّجين وكانوا يظهرون لهم جراحات مقزّزة في أجسامهم. وكان آخرون يركضون ويتصايحون، ويرقصون ويشجّون رؤوسهم بالأحجار. وكنّا نتّقيهم بالجدران.



مشهد من أزقة المدينة المنوّرة

وفي إحدى المرات اضطررنا لحشر أنفسنا بطرف الجدران للإفساح لمرور حشد لجب من الناس الذين أتوا وهم يصيحون. في بادئ الأمر لم نر سوى مئات الأعلام، من مختلف الألوان والأشكال، وحشد أسود كبير. كانت الطبول الضخمة والمزامير تعزف بقوّة، والكلّ يصرخ ويصيح بأعلى صوت. في وسط الزحمة، كان رجل على متن حصان، يرتدي عباءةً بيضاء ويفترض أن يكون أحد أحفاد الأولياء. كان الرجال حوله نصف عراة، وقد تلطخت أجسادهم وأسمالهم بالدماء، يرقصون ويثبون بشكل حاد. من وقت إلى آخر، كان شعور الحشد يحتدم، فيضربون ويطعنون أنفسهم بقوّة لتسيل دماؤهم على وجوههم وأجسادهم وأسمالهم. جعل الحشد على هذا المشهد يهلّل ويصيح، والرجال يرقصون بشدّة أكبر ويطعنون أنفسهم أكثر فأكثر، وعيونهم تنتفخ وتحمرّ، ورؤوسهم تغطيها الدّماء[1]. كان مشهداً مؤذياً، وأحياناً كانوا يقتربون من المتفرجين، ويخدشون وجوههم بأظافرهم ويطعنون أنفسهم بخناجرهم.

اقترب أحدهم مني، وقد بدا ممسوساً تماماً، وجحظت عيناه من جفنيه وتدلّى لسانه من فمه، وراح رأسه يهتز دون توقف[2]. راح الحشد حولي يهتفون له بشراسة، وأصابهم السّعار لمرأى جراحه. وفي وسط كل هذا الهيجان المستعر، بقي الولي هادئاً على حصانه بلا حراك، وكأنه تمثال.

بعد مشاهدتنا لهذا المشهد المكدّر، تابعنا طريقنا إلى مكان توقف القوافل. وهناك كم سرّني بغير حدود أن التقيت مجدداً بالدكتور خليل ومحمود البسّام، اللذين تعرّفا على أصدقاء جدد رتّبوا لنا الإقامة في منزل أحد أعيان المدينة، ورتبوا لي أمر الإقامة فيه. فتحرّرت من ربقة حارسي الذي انتهت مهمّته كما هو واضح في المدينة المنوّرة، فلم يعارض أمر انضمامي إلى أصدقائي.

لم يعرني أحد أي اهتمام عند مروري في تلك الشوارع المكتظّة، مرتدية زيّ امرأة

(1) هذه الأشياء المسماة (حضرات) من البدع القديمة التي زالت في عصرنا، ولله الحمد. وكانت في القرون الماضية شائعة.

(2) هذه الأمور المنكرة كان يقوم بها ناس من غير العرب، من الوافدين على الحجاز من شتى أصقاع الأرض. ولا وجود لمثل ذلك اليوم.

مسملة. دخلنا شارعاً يغلب عليه الطابع الأوروبي، ذا دور يبلغ ارتفاعها أربعة طوابق، ولم يذكرني أننا ما زلنا في بلد شرقي سوى العيون التي كانت تسترق النظر فيها من خلال أخصاص النوافذ. ودخلنا إلى واحدة من هذه الدّور الأوروبيّة المظهر، فاستقبلنا تاجر مدني عجوز بلباقة وتهذيب واضحين، فقدّمني الدكتور خليل إليه على أنني قريبته. قُدّمت لي غرفة نظيفة واسعة، وبما أنني كنت متعبة كثيراً فقد سرّني أنني على اعتباري امرأة مسلمة لم يكن ينبغي لي أن أنزل وأتفضل fahdel بالجلوس مع مضيفنا، بل تمكنت من البقاء وحدي والمكوث في مخدعي.

يا للأسف! لم يكن الضّنى الذي أحسست به سوى مقدّمة للحمّى الشديدة التي أصابتني في تلك الليلة. ولمدّة سبعة أيام راح الألم يتولّى مختلف أنحاء جسدي وكأنني تعرّضت للضرب أو الرّجم، وخلال معاناتي من هذه الحمّى كابدتُ العطش والهذيان. وخلال هذه الفترة قام على رعايتي حَسَن المسكين الوفي، الذي كان قد تبعني في جميع جولاتي، وأبدى في هذه الرّعاية غاية التضحية والتفاني.

ورغم مرضي وضعف جسدي فقد غامرتُ مرات عدّة للخروج من الدّار. بدت الحياة في الشوارع كحفل راقص ذي ملابس تنكريّة، فقد وصلت قوافل كبيرة في الليلة الماضية، وكان فيها أناس من الصين، وبلاد الفرس، واليابان، والهند، ومصر، ومن مختلف البلاد العربية تكتظ بهم الدّروب.

رافقتني ابنة مضيفي المدني لزيارة مسجد النبي، فبهرتني المآذن والقباب الكثيرة إلى أبعد حدّ. وبداخل المسجد أعمدة ضخمة تحيط بباحة مكشوفة كبيرة. أمّا الأرضيّة المعمولة من الفسيفساء فقد غطتها بالكامل السّجاجيد الشرقيّة القديمة، بينما تدلّت الفوانيس العتيقة البرونزيّة الجميلة ما بين العواميد الرخاميّة. وعند المدخل الأساسي، «باب السّلام» Bab–el–Salam، كُسيت الجدران أيضاً بالرّخام المزخرف بالكتابات الذهبية.

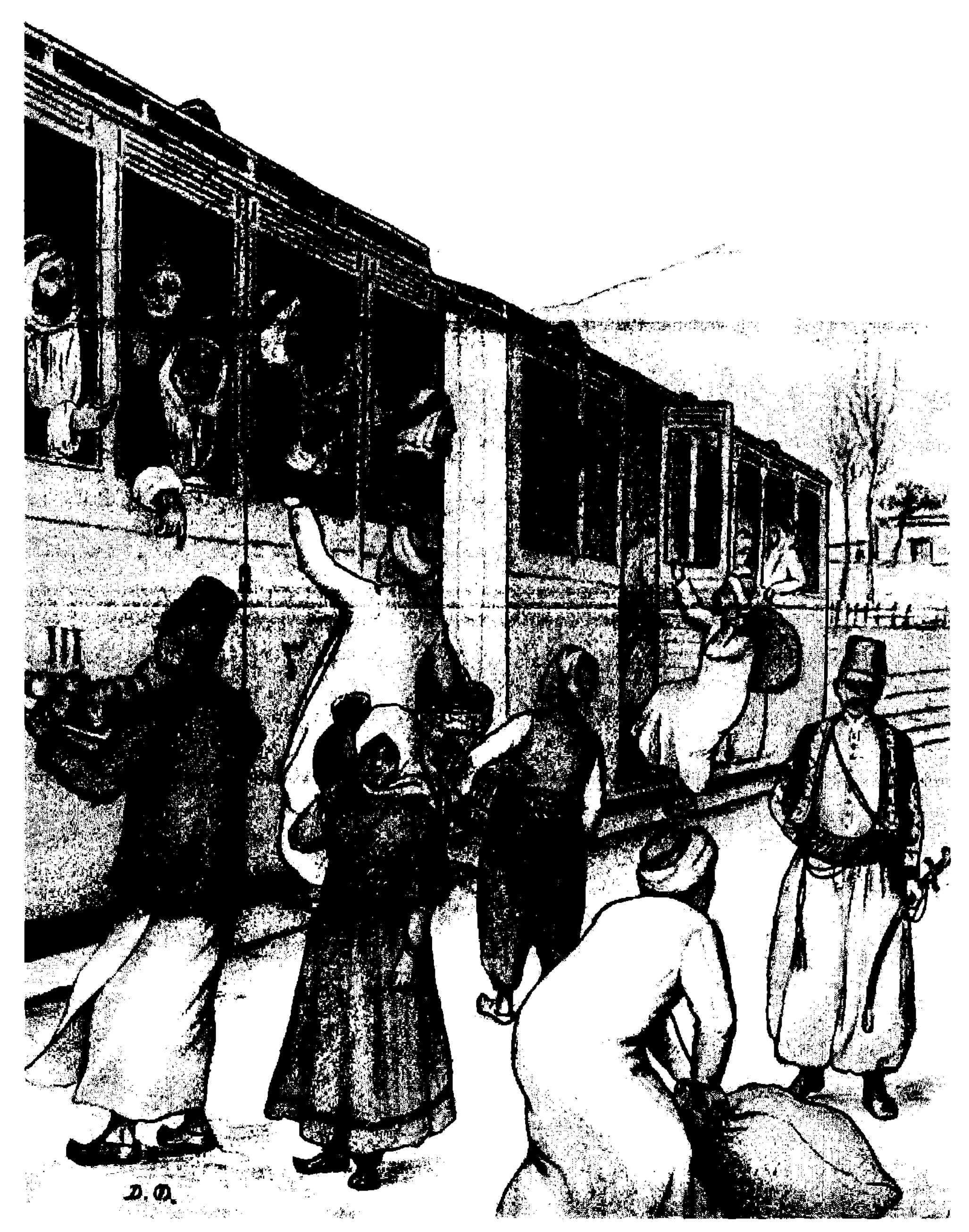
تعلو مقامات النبي والخليفتين «أبي بكر» و«عمر» قبّة، وتسوّرها الأعمدة البرونزية المزخرفة على نحو بديع، التي هي مدعاة للإعجاب والتأمّل ويصعب رؤية ما يوجد خلفها بالداخل. عندما حاولت النظر إلى داخل المقام خلف السياج، لم أستطع رؤية سوى ستار أخضر ثمين، وما بين السّور والأضرحة توجد جميع تحف المسجد الثمينة. أمّا ضريح

السيّدة فاطمة، الذي يجاور قبر الرّسول، فهو مكسو بستار أسود جميل، وقد طُرّزت عليه آيات من القرآن الكريم بخيوط الذهب.

في السّاحة المكشوفة يوجد سبيل النبي وقد حاوطته أشجار النخيل، التي يقال إنّ ابنته فاطمة قد زرعتها هناك. وبما أن زيارتي للمسجد لم تكن خلال الساعات المخصّصة للصلاة، فلم يكن هناك سوى القليل من الناس الذين ينشغلون بمراسلاتهم الخاصّة، أو يقرؤون القرآن الكريم بنبرة منخفضة، أو يتداولون في المسائل الفقهيّة.

عدا عن المسجد لم يكن هناك أي شيء مثير للاهتمام أو ذي صفة خاصّة في المدينة المنوّرة. وأمّا الناس أنفسهم فيبدون من النوع البورجوازي (من طبقة التجّار). والأغنياء منهم يملكون المنازل التي يؤجرونها خلال موسم الحجّ، وأمّا الآخرون فالغالبيّة منهم أصحاب دكاكين أو أدلاء أو يعملون في خدمة بعض شؤون المسجد. وكثيرون منهم يكسبون رزقهم من خلال أداء الصلاة في الجامع نيابة عن الناس الذين يعيشون بعيداً. في الحقيقة، لم يكن هناك شيء لافت للنظر سوى الحياة في الشوارع، بما فيها من حشود الحجّاج والمتولّهين. ولكنني لم أجد أياً من تلك المقاهي أو الفنادق العربيّة الجميلة، التي منها العديد في دمشق.

* * *



محطة القطار في المدينة المنوّرة

وبما أنني كنت ما أزال أشعر بكثير من الضعف والتعب بعد عزلتي الإجباريّة، فلقد أقنعت الدكتور خليل بمقدرتي على المغادرة إلى دمشق. ولحسن حظنا، كان هناك قطار مغادراً بعد يومين، فرتّبنا أمورنا لنسافر على متنه. وتركت لمضيفي اللطيف في المدينة المنوّرة حصاني والحاجيات القليلة التي كانت ما تزال في حوزتي. وبما أنه لم يكن هناك العديد من المسافرين العائدين بذلك الاتجاه، فقد حظينا لحسن طالعنا بمقصورة خاصّة لنا. ولكنني قد أسأت تقدير مدى قوّتي، فبعد رحلة الليلة الأولى أُصبتُ بنوبة مزعجة من الحمّى من جديد، ولقد سعى حسن لتأمين وسائل الراحة الكاملة لي، من سرير أرجوحة، وتدبّر (والله أعلم كيف) الحصول على ثلج وضمادات مبرّدة، ومع ذلك فقد كانت الرحلة مريعة جداً. كانت حركة القطار بمثابة تعذيب لي، وراحت أطياف مغامراتي في غضون الأشهر الماضية تتراقص وتتواثب أمام ناظري طوال الوقت.

* * *

في الختام، عُدت أخيراً إلى منزلي العتيق في دمشق، وراح صوت الرّنين «كلاك – كلاك» من قبقاب الستّ تروسين ينهال على أذني. وعندها رحتُ أتساءل: هل كانت الأشهر الثلاثة الماضية حقيقة أم حلماً؟ وخلال الهدوء والسّكينة الذين يخيّمان على منزلي الصّغير، جلستُ وطفقتُ أطرح على نفسي الأسئلة التالية: هل فشلت، أم نجحت؟ من المؤكد أنني دفعتُ ثمن خبرتي. لقد قرّرتُ أن أبدأ من جديد، بعد الخبرة التي أحرزتها من خلال ما تعلّمته. وعلى ذلك، سيبقى «الرّبع الخالي» هدفي ما حييت[1].

إنشاء الله!

* * *

(1) أما اجتياز الرّبع الخالي، فما برح مغامرة وحلماً صعب المنال يحلم به رحّالو الإنكليز طويلاً، إلى أن تمكّن من تحقيقه في النّهاية المغامر الجسور برترام توماس Bertram Thomas الذي كان وزيراً لدى سُلطان عُمان، فتوجّه إلى ظُفار عام 1928 ثم اجتاز الرّبع الخالي عام 1930. تلاه هاري سنت جون فيلبي Harry St. John Philby في عام 1932، ثم ولفريد ثِسيجَر Wilfred Thesiger فاجتازه مراراً بين 1946–1948، فكان بحقّ آخر جيل رحّالي أوروبا الأصيلين في جزيرة العرب (توفي مؤخراً 2005).

مراجع البحث
حول حياة الكونتيسة

Books

1. Countess Malmignati, *Through Inner Deserts to Medina*, London, 1925.
2. Count & Countess Malmignati (ed. with introduction by Jan Gordon), *As Beggars, Tramp through Spain*, London, 1927.

Articles

3. Countess Molitor, 'Russian Countess in the Arabian Desert. Adventures of Countess Molitor as told in her Diary', in Francis Trevelyan Miller (ed.), *True Stories of the Great War*, vol. 6, New York, 1917.
4. Count Malmignati, 'À travers L'Espagne en Mendiant, taken from the narrative of La comtesse Malmignati', *Lectures Pour Tous*, Hachette, Paris, 1932, nos. 9 & 10.
5. P. G. Malmignati, 'Caravaning with the Nomads of Arabia', *Travel*, 52, New York, February 1929.
6. Comte P.-G. Malmignati, 'Deux Mois avec Les Bédouins Nomades du Désert Hamad, La Tribu des Roualla', 1928 [6-page illustrated article, source unknown] Also printed as 'Dans l'Arabie Inconnue. Deux Mois avec les Bedouins Nomades du Désert Hamad', *L'Illustration*, 1928 [date unknown].

Newspaper interviews

7. Hayden Church ['copyright by Curtis Brown'], 'Beautiful Countess to Dare Alone World's Worst Spot', *The Atlanta* [later, *Atlanta Journal Constitution, ajc*], 28 December 1913. [Dated London, 27 December 1913. Includes three illustrations.]
8. 'Countess Braves Death to Seek Lost Cities of Arabia', *Ogden Examiner*, 26 June 1927.
9. Countess Malmignati [with anon. intro.], 'Famous Countess' Adventures Amid Tents of the Sheik of Sheiks', *The Daily Express*, 6 February 1928. [Includes four photographs.]
10. [Photograph, with caption], *The Daily Express*, 20 March 1928.
11. Hayden Church ['copyright by Curtis Brown'], 'Russian Beauty Braves Arabian Desert', *Deseret Evening News*, Salt Lake City, 28 April 1917. [Dated London, 18 April 1917. Includes four photographs. Uses material from Church (1913) and Miller (1917), some of which, particularly the latter, is reproduced verbatim.]

Other newspaper articles not seen but probably syndicated versions of Church (1913)

'Countess Molitor of Russia plans to cross the Rub al Khali Plateau, a Region

which no European has ever entered', *Chicago Daily Tribune*, 25 January 1914.

'Countess Molitor to Invade Wastes of Arabia', *Los Angeles Times*, 25 January 1914.

'Varied activities of Women', *Chicago Daily Tribune*, 1 February 1914.

[title unknown], *Berkeley Daily Gazette*, 20 February 1914.

Reviews of *Through Inner Deserts to Medina*

12. David George Hogarth, [Review], *Geographical Journal*, 66 (5), November 1925.
13. Alois Musil, 'The Countess Malmignati. Through Inner Deserts to Medina', *The Geographical Review*, 17 (2), April 1927.
14. Harry St J. Philby, [Review], *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. 13, 1925, p. 81.
15. [Countess Malmignati's letter of response], *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. 13, 1925, p. 184.
16. [Review; not seen]: 'Through the Inner Deserts of Arabia - the Countess Malmignati is the first European woman to penetrate to the little-known Inner Deserts of Arabia', *Wide World Magazine*, 57, 341, August 1926.

Passing encounters with other writers and travellers

17. Signe Toksvig, *Signe Toksvig's Irish diaries 1926-1937*, ed. by Lis Pihl, Dublin, 1994 [entries for 1930].
18. Gertrude Bell, *The Arabian Diaries 1913-1914*, ed. by Rosemary O'Brien, 2000, [p. 157; entry for 11 January 1914].
19. American Womens' Club of Paris, *Bulletin* 58.
20. Eunice Holliday, *Letters from Jerusalem during the Palestine Mandate*, ed. by John C. Holliday, London, 1997 [entries for April 1928].
21. *Man: the Journal of the Royal Anthropological Institute*, 7 April 1928. [This story of Count Malmignati chasing ostriches was also carried by the *Illustrated London News* in 1928.]

Other books mentioning Countess Malmignati

22. Judy Mabro, *Veiled Half-truths: Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women*, 1991.
23. Harry St J. Philby, *Forty Years in the Wilderness*, London, 1957, p. 110.
24. Robin Leonard Bidwell, *Travellers in Arabia*, London, 1994, p. 137.

Archival resources

25. Royal Geographical Society. Correspondence with John Scott Keltie.
26. Middle East Centre, St Anthony's College, Oxford. Harry St John Philby Collection. Correspondence. Box No. 14, 3.

* * *

فهرس الموضوعات

رحلة إلى المدينة المنورة
عبر قلب البادية

(صحارى البرّ الداخلي)

دوروتيا فون لينكه (الكونتيسة مالمينياتي)، رحالة ألمانية جريئة ولدت في روسيا وكانت ذات شخصيّة مغامرة فريدة، استولى عليها لفترة من شبابها حلم اجتياز صحراء الربع الخالي بطائرة أو بمنطاد، فقامت منفردة برحلة عام 1914 من دمشق إلى المدينة المنوّرة برفقة الشيخ الشاب الوسيم سلطان الطيّار شيخ عشيرة ولد علي، ويبدو أنها وقعت في غرامه.. وكانت تأمل في إقناعه بمرافقتها في رحلتها المجنونة إلى الربع الخالي، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى حطّم أحلامها وألغى مشروعها، فعادت بعد رحلة شاقة عبر زلفي والقصيم إلى المدينة المنورة، ومنها إلى دمشق ثم إلى أوروبا. تقدّم لنا دوروتيا في كتابها هذا مثالاً فريداً عن جراة الرّحالات الأوروبيات وشغفهنّ بالمغامرة.

السعر 55 درهماً


9789948019725

